جوزية إدواردو أغوالوزا

بائع الماضي

ترجمة: عبد الجليل العربي

رواية | دار نون للنشر

جوزيه إدواردو أغوالوزا

بائـــع المـاضـي

روايـــــة

ترجمها عن البرتغاليّة: عبد الجليل العربي

اسم الكاتب: خوزيه إدواردو أغوالوزا | ترجمة إلى العربية: د. عبد الجليل العربي
عنوان الكتاب: بائع الماضي
صورة الكاتب على الغلاف: Rosa Cunha
الطبعة الأولى 2016
الترقيم الدولي ISBN 978-9948-13-498-5



دار نون للنشر
ص.ب 40044 رأس الخيمة / دولة الإمارات العربية المتحدة
www.dar-noon.com

المحتوى

لو أولد من جديد فسأختار شيئا مختلفا تماما. أريد أن أكون نرويجيّا. وربّما فارسيّا. أمّا أوروغوانيّا فلا، لأنّني سأكون كمن غيّر حيّه.

خورخي لويس بورخيس

إله ليليّ صغير

ولدت في هذا المنزل. لم أخرج منه أبدا. كنت عند الغروب أسند جسمي مقابل زجاج النوافذ وأحدّق في السماء. أحبّ أن أرى الشفق العالي والسحب تمرّ سريعا وفوقها جحافل من الملائكة توجهّها، وشعرها يتطاير شررا وهي تحرّك أجنحتها الناريّة. إنّه مشهد ثابت دائما. كلّ غروب آتي إلى هنا فأتسلّى وأنبهر بهذا المشهد وكأنّي أراه للمرّة الأولى. في الأسبوع الماضي وصل فيليكس فنتورا باكرا وفاجئني وأنا أضحك بينما هناك في الخارج، في الأزرق الهائج، سحابة ضخمة تجري في شكل دائريّ كأنّها كلب يحاول أن يطفئ نارا تلتهم ذيله.

«آه! لا أكاد أصدق، أتضحك؟».

استفزّتني غرابة هذا المخلوق. أحسست بالخوف ولكنّني لم أحرّك ساكنا. يخلع الأمهق النظّارة السوداء، يضعها في جيب سترته الداخلية. يخلع، مغموما، السترة ببطء ويعلّقها بعناية على طرف الكرسيّ. اختار اسطوانة ووضعها في آلة تشغيل الاسطوانات القديمة. « ترنيمة إلى نهر » للمغنّية دورا ألزيز، المغنية البرازيليّة التي، على ما أظنّ، كانت قد عرفت بسوء السمعة في السبعينات. والذي جعلني أعتقد هذا كان غلاف الاسطوانة. إنّها صورة لامرأة بالبيكيني، زنجية، وجميلة، تظهر بجناحيْ فراشة كبيرين على كتفيها. أقرأ «دورا، ألزيز، ترنيمة إلى نهر ـ النجاح الأكبر حاليّا». صوتها يحترق في الهواء. في الأسابيع الأخيرة كانت هذه أغنيته المفضّلة ساعة الغروب. أحفظ الكلمات عن ظهر قلب.

لا شيء يمضي، لا شيء ينتهي

الماضي نهر نائم

والذاكرة كذبة متعدّدة الأشكال.

تنام مياه النهر

تنام

وفي حضني تنام الأيام

تنام الآلام

لا شيء يمضي، لاشيء ينتهي

الماضي نهر نائم

يتظاهر بالموت. يتنفّس بصعوبة

أيقظْه واقفزْ محتجّاً.

رجا فيليكس لو أنّ النور يمحي أيضا نغمات البيانو. بعد ذلك أدار إحدى الأرائك دون أن يحدث، تقريبا، ضجيجا بشكل يجعله مواجه للنافذة وأخيرا جلس. مدّ رجليه متنهّدا:

«تبّا! تضحك أيّها القصير!؟ يا لها من مفاجأة عجيبة...»

بدا لي صريعا، اقترب وجهه منّي فلاحظت دما يشوب حدقتيْ عينيه. طوّقت أنفاسه جسمي. حرارة حامضة.

« جلدك سيّء جدّا. لا بدّ أنّنا ننحدر من نفس العائلة.»

كنت أنتظر ذلك. إذا استطعت أن أتكلّم فذلك سيكون غير مهذّب. فجهازي الصوتي لا يسمح لي إلا بالضّحك. هكذا، حاولت أن ألقي في وجهه قهقهة شرسة، صوتا ما قادرا على إفزاعه، على إبعاده من هناك، ولكن لم أستطع سوى القيام بغرغرة فضفاضة. إلى حدود الأسبوع الماضي كان الأمهق دائما يتجاهلني. ومنذ ذلك الحين، وبعد أن سمعني أضحك، صار يعود باكرا. يذهب إلى المطبخ ويعود بكأس عصير بابايا، يجلس على الأريكة ويشاركني احتفال الغروب. نتحدّث. أو بالأحرى هو يتكلّم وأنا أستمع. أحيانا أضحك وهذا يكفيه. أظنّ أنّ ما يربطنا هو خيط صداقة مشبوهة. كان الأمهق يعود في ليالي السبت متأبّطا فتاة. إنّهن فتيات مرهفات، وطويلات وممططات، سيقانهنّ رائعات الرقّة. تدخل بعضهنّ بخوف. كنّ يجلسن على حافة الكراسي، يتفادين النظر إلى وجهه وغير قادرات على إخفاء الاشمئزاز. يشربن مشروبا غازيا، رشفة برشفة، وبعدها يخلعن ملابسهنّ في صمت. كنّ ينتظرنه ممدّدات على ظهورهن وأيديهنّ مكتوفة على نهودهنّ. وأخريات أكثر تهوّرا إذ يغامرن لوحدهنّ في البيت، يقيّمن لمعان الفضيات، وفخامة الأثاث، ولكن يعدن بسرعة إلى قاعة الجلوس مذعورات من هول أكوام الكتب المرفوفة في الغرف والممرّات. وكنّ يرتعبن، بنحو خاص، من تلك النظرات الحادة للفرسان ذوي القبّعات الطويلة، والنظّارات ذات العين الواحدة، تلك النظرة الوهميّة للنساء البيسغانيات في لواندا وبنغيلا، النظرة الحادّة لقادة البحرية البرتغالية في لباس

الاستعراض الموحّد، نظرة مجنونة لأمير كونغولي من القرن التاسع عشر، نظرة تحدٍّ لكاتب أمريكي زنجي مشهور. كلّهم في هيئة خالدة بين الإطارات المذهّبة. يبحثن بين الرفوف عن اسطوانة.

«عمّي، أليس عندك كودورو؟».

وبما أنّ الأمهق ليس عنده موسيقى كودورو ولا كيزومبا، وليس عنده الفرقة العجيبة ولا باولو فلورش الذين يمثّلون نجاحات الساعة، انتهين إلى اختيار الاسطوانات ذات الأغلفة البهيجة، وهي ألحان كوبية ثابتة. يرقصن بخطوات قصيرة على الأرضية الخشبية، في حين كانت أزرار القميص تقفز واحدة تلو الأخرى. البشرة خارقة، ناعمة جدا، رطبة ولامعة، في تناقض تامّ مع بشرة الأمهق، الجافة والهائجة، والوردية. أنا أرى كلّ شيء. داخل هذا المنزل أنا مثل إله ليليّ صغير. خلال النهار، أنام.

المـــنزل

المنزل حيّ. يتنفّس. أسمعه يتنفس كلّ ليلة. حيطانه المبنيّة بالطوب والخشب باردة دائما حتى وإن كانت شمس الضحى تخرس العصافير، وتجلد الأشجار، وتذوّب الاسفلت. أشعر عندما أحضنه بقلب ينبض. قد يكون قلبي أو هو قلب المنزل. هذا لا يعني الكثير بل يسعدني ويشعرني بالأمان. كانت فاليا اشبيرانسا تأتي من حين لآخر بأحد أحفادها الصغار. تحملهم على ظهرها ملفوفين جيّدا في قماش حسب العادة المحليّة المتوارثة منذ قرون. هكذا كانت تقوم بكامل عملها. تمسح البلاط، تمسح الغبار عن الكتب، تنظّف المطبخ، تغسل الملابس وتكويها. كان الرضيع ملتصقا بظهرها، تشعر بحرارته ونبضاته. يظنّ أنّه عاد من جديد لرحم أمّه فينام. لديّ علاقة مشابهة بالمنزل. ففي الظهيرة، كما قلت، أبقى في قاعة الضيوف ملتصقا بالنوافذ متأمّلا غروب الشمس. وعندما يحلّ الليل أطوف بمختلف الغرف. قاعة الضيوف متّصلة بالحديقة الضيّقة والمهملة فلا شيء فيها يثير سوى نخلتين باسقتين عظيمتين متجبّرتين، تقف كلّ واحدة في ركن لتحرسا المنزل. الصالة متّصلة بالمكتبة. ومنها يكون العبور إلى البهو عبر باب عريض. فالممرّ عبارة عن نفق خلفيّ شديد الرطوبة ومظلم ويؤدّي إلى غرفة النوم وغرفة الطعام والمطبخ. هذا الجزء من المنزل يفتح على الفناء الخلفي. كان نور الصباح يداعب الجدران أخضر، لطيفا، يتسرّب بين فروع شجرة الأفوكادو العالية.

في نهاية الرواق، على الجانب الأيسر لقاعة الجلوس، يقف بجهد عسير سلّم صغير متكوّن من ثلاث درجات مكسورة. وبعد صعودها تصل إلى ما يشبه العلية التي كان لا يدخلها الأمهق إلا نادرا. كانت علية ملأى بكراتين

الكتب. أنا أيضا لا أزور هذا المكان كثيرا. كانت الخفافيش تنام في السقف ورؤوسها إلى الأسفل ملفوفة في أغطيتها السوداء. أتجاهل إن كانت الوزغات تمثّل حمية للخفافيش. أفضّل ألا أعرف ذلك. إنّه السبب نفسه؛ الرعب الذي يجعلني لا أستغلّ الحديقة المنزلية. أشاهد من نوافذ المطبخ، من غرفة الطعام أو من غرفة فيليكس، الأعشاب البريّة تنمو وتكبر بين الورود. هناك شجرة أفوكادو، بالضبط في قلب الحديقة، تعلو مورقة. توجد أيضا شجرتا زعرور طويلتان مثمرتان وبعض شجرات البابايا، ما يقارب العشرة. يعتقد فيليكس في قدرة البابايا على المحافظة على عمر الشباب.

هناك سور عال يحيط بالحديقة. أعلى السور مغطّى ببقايا الزجاج الملّون المغروس في الاسمنت. أراها من هنا فتذكّرني بالأسنان. فهذه الحيلة الشرسة لم تمنع الصبيان من تسلّق السور من حين لآخر وسرقة حبّات الأفوكادو والزعرور والبابايا. كانوا يضعون لوحة على السور ثمّ يتدحرجون عليها بأجسامهم. تظهر مهمّة بالغة الخطورة من أجل الحصول على ثمار قليلة. أعتقد أنّهم لا يفعلون ذلك من أجل طعم الفاكهة، وإنّما لاختبار الخطر. غدا سيكون الخطر عندهم، ربّما، بطعم الزعرور الناضج. لنتخيّل أنّ أحدهم سيصير يوما خبير متفجّرات. ففي هذا البلد لا ينقطع عمل خبراء المتفجّرات. شاهدت أمس بالذات في التلفزيون تقريرا حول عملية إزالة الألغام. تأسّف مسؤول في مؤسّسة غير حكومية لعدم دقّة الأرقام. لا أحد يعرف بالضبط كم لغما تمّ دفنه في الأراضي الأنغولية. بين عشرة وعشرين مليون. ربّما توجد ألغام أكثر من الأنغوليين أنفسهم. ثمّ، لنفترض أنّ أحد هؤلاء الصبية أصبح ذات يوم خبير متفجّرات. فكلّما زحف على حقل ألغام يأتيه من بعيد طعم الزعرور. سيواجه يوما ما السؤال المحتوم مطروحا بمزيج من الفضول والرعب

من طرف مراسل أجنبي:

« بم تشعر حين تفكّ لغما؟».

والصبيّ، الذي مازال يسكنه، يردّ مبتسما:

«طعم الزعرور، يا أبي».

كانت فاليا إشبيرنسا تقول إنّ الجدران هي التي تصنع اللصوص. سمعتها تقول ذلك لفيليكس. واجهها الأمهق مازحا:

«انظروا فقد صارت عندي فوضويّة في البيت؟! بعد قليل سأكتشف أنّك تقرئين باكونين.»

قال ذلك ولم يعرها مزيدا من الاهتمام. طبعا هي لم تقرأ أبدا باكونين، أوبالأحرى، إنّها لم تقرأ كتابا قطّ في حياتها فهي بالكاد تعرف القراءة. ولكن تعلّمت أشياء كثيرة حول الحياة عموما أو حول العيش في هذا البلد. كانت تقول إنّها حياة في حالة سكر. كنت أسمعها تكلّم نفسها عندما تكون بصدد ترتيب المنزل. فمرّة تتكلّم بهمس لذيذ، وأخرى كأنّها تغنّي، وأخرى بصوت عال كأنّها تشتُم. فاليا إشبيرنسا مقتنعة تماما أنّها لن تموت أبدا. ففي عام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين، نجت من مجزرة. كانت قد ذهبت إلى بيت أحد قادة المعارضة لتجلب رسالة من ابنها الأصغر الذي كان يؤدّي الخدمة العسكرية في هوامبو عندما انهمر وابل من الرصاص(من كلّ اتّجاه). أصرّت على الخروج من هناك. أرادت العودة إلى كوخها ولكنّهم منعوها.

«هذا جنون، أيّتها العجوز، اعتبري أنّها تمطر وبعد قليل ستكفّ.»

لم تكفّ. فإطلاق الرصاص كالعاصفة صار أكثر شدّة وبدأ يضيق. كان يتصاعد في اتّجاه المنزل. روى لي فيليكس ما حصل في تلك العشية:

«جاءت قوّات من المنحرفين، مجموعة من المشاكسين السكارى والمسلّحين جيّدا. دخلوا المنزل بالقوّة وضربوا الجميع. أراد القائد أن يعرف اسم العجوز. وهي قالت له، إشبيرنسا جوب سبالالو، أيّها القائد، وهو ضحك. ردّ، الأمل آخر شيء يموت. أخذوا المسؤول العسكريّ وعائلته إلى حديقة المنزل وأطلقوا عليهم الرصاص. وعندما جاء دور فاليا إشبيرنسا لم تتبقّ أيّة رصاصة. هذا ما أنقذك، صرخ القائد في وجهها، إنّها الأمور اللوجستية. مشكلتنا أنّه دائما عندنا أمور لوجستية. بعد ذلك أطلق سراحها. الآن تعتقد أنّها محصّنة ضدّ الموت. ربّما تكون كذلك.»

لم يبد لي ذلك مستحيلا. إشبيرنسا جوب سبالالو لديها شبكة رقيقة من التجاعيد على الوجه، الشعر كلّه أبيض، لكن لحمها لايزال متماسكا، وحركاتها صارمة ودقيقة. في رأيي ليس العمود هو الذي يشدّ هذا المنزل.

الغريـــب

يقرأ فيليكس الجرائد ساعة العشاء، يتصفحّها بدقّة ولمّا يعجبه مقال فإنّه يسطّره بحبر ليلكيّ. يكمل الأكل ثمّ يشرع في قصّه بعناية وحفظه في أرشيف. توجد العشرات من هذه الأرشيفات في رفوف المكتبة. وتنام في رفوف أخرى مئات من أشرطة الفيديو. يحبّ فيليكس تسجيل الأخبار والأحداث السياسيّة وكلّ ما يمكن أن يكون نافعا يوما ما. الأشرطة مرتّبة ترتيبا ألفبائيا حسب أسماء الشخصيات، أو الأحداث التي تحيل عليها. يتلخّص عشاؤه في حساء الكالدو الأخضر، اختصاص فاليا إشبيرنسا، وشاي بالنعناع، وقليلا من نبيذ بورتو. في الغرفة، وقبل أن ينام، يلبس البيجاما بكلّ أبّهة لدرجة تجعلني أبقى دائما أنتظر كيف سيضع ربطة عنق سوداء في رقبته. هذه الليلة قطعته رنّة الجرس عن حسائه وهذا أزعجه. ثنى الجريدة وقام بصعوبة ثمّ ذهب ليفتح الباب. رأيت رجلا طويلا يدخل مميّزا، أنفه كأنوف مدمني المخدّرات، تفاحتا خديّه ناتئتان، شاربه كثّا، منحن ومقوّس في شكل انقرض منذ أكثر من قرن. العينان صغيرتان ولامعتان كأنّهما استوليتا على كلّ شيء. يلبس بدلة زرقاء من الطراز القديم وهي حقّا مناسبة له. يمسك بيده اليسرى حقيبة جلديّة. صارت الصالة أكثر عتمة وكأنّ الليل، أو شيئا آخر أكثر ثقلا من الليل، قد دخل معه. أخرج بطاقة وقرأ بصوت عال:

«فيليكس فنتورا. يضمن لأولادكم ماضيا سعيدا.» ابتسم. كانت ابتسامة حزينة ولكنّها لطيفة: «هل أنت حضرة السيّد؟ أحد الأصدقاء أعطاني هذه البطاقة.»

لم أستطع، من خلال لهجته، أن أعرف أصله. الرجل كان يتكلّم بهدوء، بجملة من اللهجات المتعدّدة، بخشونة سلافية خفيّة ممزوجة بروح حلاوة برتغالية البرازيل. تراجع فيليكس:

«من أنت؟».

أغلق الغريب الباب. تجوّل في الصالة. يداه متقاطعتان خلف ظهره. توقّف لحظات طويلة أمام لوحة زيتيّة جميلة لفريديريك دوغلاس. أخيرا جلس على أحد الكراسي، وبإشارة لبقة طلب من الأمهق أن يفعل الشيء نفسه. كان يتصرّف وكأنّه صاحب البيت. قال، بصوت أكثر نعومة، إنّ أصدقاء مشتركين كانوا قد مدّوه بالعنوان. كانوا قد حدّثوه عن رجل يتاجر بالذكريات، يبيع الماضي سرّا، كما يبيع الآخرون الكوكايين. نظر إليه فيليكس مرتابا. كلّ ما هو غريب يزعجه فأساليبه حلوة وناعمة وفي الوقت نفسه متسلّطة، الخطاب الساخر، الشارب القديم. جلس على كرسيّ كبير وثير من السعف في الركن المقابل من الصالة وكأنّه خشي من أن تنتقل له عدوى لباقة الرجل الغريب.

«هل يمكنني أن أعرف من أنت؟».

لم يحصل على جواب هذه المرّة أيضا. طلب الغريب الإذن بالتدخين. أخرج من جيب السترة حافظة سجائر فضّيّة، فتحها ولفّ سيجارة. عيناه تقفزان من مكان لآخر، بشرود وكأنّه دجاجة تنقر في التراب. ترك الدخان ينتشر حتّى حجبه. ابتسم كحريق مفاجئ:

«لكن، قل لي يا عزيزي من هم زبائنك؟».

استسلم فيليكس فنتورا. رجال أعمال، وزراء، مزارعون، تجّار الماس، جنرالات، ناس عاديون؛ يعني أصحاب مستقبل مضمون. لا ينقص هؤلاء الناس إلا ماض جيّد وأجداد مشاهير ومخطوطات. الخلاصة: البحث عن اسم متأصّل في النبالة والثقافة وهو يبيع لهم الماضي على ورقة. يرسم لهم الشجرة العائلية. يعطيهم صورا للأجداد ولآباء الأجداد، سادة بخواتم رقيقة، سيّدات من الزمن القديم. رجال الأعمال و الوزراء يرغبون في أن تكون تلك النساء عمّاتهم أو خالاتهم. واصل مشيرا إلى الصور على الحائط ـ سيّدات بملابس فاخرة، بيسانغيات حرائرـ، يحبّون أن يكون لهم مثلا جَداً بحجم اللامع ماشادو دي أسيش، كروش إي سوزا، ألكسندر دوماس. وهو يبيع لهم هذا الحلم الوحيد.

«رائع، رائع». مسّد الغريب شاربه: «هذا ما ذكروه لي. أنا أحتاج إلى خدماتك. وأخشى ألا أرهقك كثيرا بهذا العمل الكبير!».

«العمل يحرّر»، تمتم فيليكس. قال ذلك ربّما لاستفزازه، ليحاول معرفة هويّة الدخيل، ولكن ماذا لو فشلت هذه الرغبة، طبعا فالرجل اقتصر فقط على تحريك رأسه في إشارة إلى الموافقة. قام الأمهق واختفى في اتّجاه المطبخ. عاد بعد قليل ممسكا بكلتا يديه قنّينة نبيذ أحمر برتغاليّ من النوع الجيّد. أظهرها للغريب. قدّم له كأسا وسأل:

«هل يمكنني أن أعرف اسمك؟».

تطلّع الغريب إلى النبيذ منعكسا على نور المصباح. أغمض جفنيه وشرب ببطء وهدوء. سعيدا كمن يتمتّع بلحن هروب لباخ. وضع الكأس أمامه بالضبط، على مائدة صغيرة من خشب الماهوغني وفوقها غطاء زجاجيّ. أخيرا استدار وأجاب:

«كان عندي كثير من الأسماء ولكن أريد أن أنساها كلّها. أريد أن أتعمّد على يديك.»

ألحّ فيليكس. كان يريد أن يعرف، على الأقل، مهنة زبائنه. الغريب حرّك يده اليمنى، يد عريضة بأصابع طويلة ونحيلة. ثمّ انحنى وتنهّد:

«عندك حقّ. أنا مراسل فوتوغرافي. أجمع صور حروب، مجاعات وأشباحها، كوارث طبيعية ذات مآسي كبيرة. فكّرْ فيّ كشاهد على ذلك.»

شرح له أنّه يريد أن يستقرّ في البلد. يريد ما هو أكثر من ماض لائق، ما هو أكثر من عائلة كبيرة، ومن أعمام وعمّات وأبناء وبنات عمومة وأبناء وبنات أخ، أجداد وجدّات، بما في ذلك اثنتان أو ثلاث من البيسانغيات الحرائر، رغم أنّ جميع أولئك الأقارب قد ماتوا جميعهم أو عاشوا في المنفى. يريد شيئا أبعد من الصور والسير. يريد اسما جديدا، ووثائق وطنية رسمية تكون شاهدة على هذه الهويّة الجديدة. الأمهق استمع إليه مرتعبا:

استطاع الأمهق أن يقول»لا!». «هذا لا أفعله. أنا أصطنع أحلاما فقط، أنا لست مزوّرا..وأكثر من ذلك، ولتسمح لي صراحتي، سيكون صعبا

أن أختلق للسيّد شجرة عائلية ذات جذور كلّها إفريقية».

«انظروا ماذا يقول!ولماذا؟!...»

«طيّب....السيد أبيض!».

«وإذن؟! أنت أكثر بياضا منّي!».

«أبيض، أنا؟!» اختنق الأمهق. أخرج منديلا من جيبه ومسح جبينه:»لا. لا! أنا زنجيّ. أنا زنجيّ أصيل. ألا ترى أنّني زنجي؟...».

أنا الذي أقضي وقتي في مكاني المعهود، بجانب النافذة لم أستطع تفادي القهقهة. الغريب عقد وجهه كأنّه يشمّ الهواء. بدا مضطربا، قال:

«أسمعت هذا؟ من كان يضحك؟».

«لا أحد» ردّ الأمهق وأشار إليّ: «إنّها الوزغة.»

قام الرجل. رأيته يتقدّم نحوي وعيناه تخترقني. كان وكأنّه ينظر مباشرة إلى روحي (روحي القديمة). حرّك رأسه بصمت مريب:

«هل تعرف ماهذا؟.»

«عفوا؟»

«إنّها وزغة. نعم. ولكنّها من فصيلة نادرة جدّا؟ هل ترى هذه البقع؟ إنّها وزغة - نمر أو وزغة نمرية، حيوان خجول والدراسات حوله قليلة.

فالأعداد الأولى التي تمّ اكتشافها كانت في ناميبيا منذ سنوات. يُعتقد أنّها تستطيع أن تعيش عقدين من الزمن أو ربّما أكثر. الابتسامة مثيرة. ألا تبدو لك أنّها ابتسامة بشرية؟».

وافق فيليكس. نعم، مبدئيا هو أيضا سيظلّ مظطربا. بعد ذلك سيتفحّص بعض الكتب حول الزواحف. سيجدها هناك بالضبط، في المنزل. عنده كتب بخصوص كلّ شيء، آلاف منها كان قد ورثها عن أبيه بالتبنّي. كان أبوه يعمل كتبيا.استبدل لواندا بلشبونة بعد أشهر من الاستقلال. وسيكتشف أنّ بعض الوزغات يمكن أن تصدر أصواتا عالية تشبه القهقهات. ظلا بعض الوقت يتناقشان حولي. ما أزعجني أنّهما يتحدّثان عنّي كما لو أنّي لست موجودا. وفي نفس الوقت شعرت أنّهما لا يتكلّمان عنّي وإنّما عن كائن آخر غريب، عن شذوذ بيولوجي غامض وبعيد. البشر يجهلون تقريبا كلّ شيء حول الكائنات الصغيرة التي تشاركهم المجال؛ فئران، وطاويط، نمل، خنافس، عثث، براغيث، ذباب، عناكب، ديدان، فراشات، نمل أبيض، بق، بق الأرز، حلزون.

اعترفت بأنّ أفضل شيء لي هو أن أعيش حياتي. في تلك الساعة يمتلئ بيت الأمهق بالذباب وأنا يأخذني الشعور بالجوع. قام الغريب وذهب نحو الكرسيّ الذي ترك عليه الحقيبة. فتحها وأخرج منها ظرفا كبيرا. سلّمه لفيليكس. ودّعه واتّجه نحو الباب. فتحه بنفسه. هزّ رأسه واختفى.

سفينة ملأى بالأصوات

خمسة آلاف دولار من الفئات النقديّة الكبيرة.

مزّق فيليكس فنتورا الظرف بحركة سريعة. كان متوتّرا فتطايرت الأوراق وكأنّها فراشات خضراء، سبحت لحظات في الفضاء المظلم ثمّ تناثرت على أرضية البيت الخشبية، فوق الكتب، على الكراسي والأرائك. ظلّ الأمهق باهتا. فتح الباب عازما على تعقّب الغريب، ولكن في الليلة الظلماء لا أحد يظهر.

«هل رأيت هذا؟!» كان يتكلّم معي. «والآن ماذا أفعل؟».

جمع الأوراق النقدية واحدة واحدة، عدّها وأعاد حفظها. وقتها فقط انتبه إلى بطاقة داخل الظرف. قرأ بصوت عال:

«سيّدي العزيز أكمل لك خمسة آلاف دولار زيادة بعد أن تنتهي من عملك. أترك لك بعض صوري الفوتوغرافية الصغيرة لاستعمالها في الوثائق. سأعود إلى هنا بعد ثلاثة أسابيع».

جلس فيليكس وحاول قراءة كتاب «سيرة بروس شاتوين» لنيكولاس شكسبير في طبعة برتغالية صادرة عن دار كتزال للنشر. وضعه بعد عشر دقائق على الأباجور وقام. ظلّ يدور في البيت حتّى مطلع الفجر يتمتم بكلمات متقطّعة. يدا الأرملة الحنونتان والصغيرتان تدوران بلا جدوى، وحيدتين، عندما كان يتكلّم وحيدا. الشعر الأجعد المحلوق تماما تشعّ حوله هالة خارقة. لو رآه أحد من الشارع، من خلال النافذة، لا بدّ أن يعتقد أنّه شبح.

«لا، يا للحماقة! لن أفعل ذلك.»

[...]

« جواز السفر لن يكون صعبا، ولاحتّى مخاطرة، وسيكون رخيصا. أستطيع استخراجه، لم لا؟ يوما ما سيكون عليّ فعل ذلك. إنّها الإطالة التي لا مهرب منها لهذه اللعبة».

[...]

احذر أيّها الأبله، انتبه للطريق الذي اخترت. أنت لست مزوّرا. كن صبورا، اختلقْ عذرا، أرجعْ له الدولارات وقل له إنّه غير ممكن فعل ذلك.»

[...]

« عشرة آلاف دولار لا ترمى هكذا. أقضي شهرين أو ثلاثة في نيويورك. سأزور مكاتب لشبونة. أذهب إلى ريو دي جانيرو حيث عروض السامبا وحفلات رقص الغافييرا، والمأكولات الشعبية، أو إلى باريس لأشتري اسطوانات وكتبا. منذ متى لم أزر باريس؟».

[...]

أزعجتْ اضطرابات فيليكس مهمّة صيدي. أنا صيّاد ليليّ. أحاصر فريستي وأجبرها على الصعود إلى السقف. هناك في السقف لا يستطيع البعوض أن ينزل. أركض، إذن، حولها وأحاصرها بشدّة حتى أحشرها أخيرا في ركن وألتهمها. كان الفجر قد حلّ والأمهق مازال مستلقيا على الأريكة يروي لي قصّة حياته.

****

«من عادتي أن أعتبر هذا المنزل بمثابة سفينة. باخرة بخارية قديمة تجاهد بصعوبة عبور وحل نهر ثقيل. غابة شاسعة. ليلة محاصرة.» قال فيليكس هذا وخفض صوته. أشار بحركة غامضة إلى الكتب الغريبة:»سفينتي مليئة

بالأصوات».

نسمع الليل ينزل هناك في الخارج. نباح. مخالب تخدش النوافذ. ليس صعبا أن نرى النهر حين ننظر من النافذة والنجوم تدور في فلكها. طيور صعبة المنال تختبئ بين الأغصان. الهجين فاوشتو بنديتو فنتورا، كتبيّ، ابن وحفيد كتبيّ، عثر ذات صباح أحد على صندوق أمام باب المنزل. وجد في داخله أعدادا كثيرة من كتاب «البقايا المقدّسة» لإيسا دي كايروش وفوقها رضيع عار، نحيف جدّا، صافي الوجه، متوهّج الشعر، واثق الابتسامة. اعتنى الأرمل، بلا أبناء، بالصبيّ وقام بتربيته وتعليمه. كان متأكّدا من أنّ إرادة عليا دبّرت له مؤامرة ولا مفرّ. احتفظ بالصندوق والكتب. تحدّث الأمهق عن ذلك بفخر:

« كان إيسا دي كايروش مهدي الأوّل».

****

عمل فاوشتو بنديتو فنتورا كتبيا لغاية التسلية. كان يفخر أنّه لم يشتغل قطّ في حياته. يخرج صباحا باكرا ليتجوّل في منطقة بايشا؛ خطوة، خطوة. يمشي مستقيما في بدلته الكتانية، قبّعة من السعف، منديل وعصا. يحيّي الأصدقاء والمعارف بلمسة صغيرة من سبّابته على طرف القبّعة، وإن صدفة اعترضته سيّدة من جيله يهديها نور ابتسامة لبقة. كان يقول: صباح الخير أيّتها القصيدة. يرسل مزحات ماجنة لنادلات الحانة. يحكى أنّه(روى لي ذلك فيليكس) استفزّه أحد الحسّاد ذات يوم: «في النهاية، ماذا يفعل السيّد خلال أيام العمل؟».

ردّ فاوشتو بنديتو، كلّ أيّامي ليست نافعة، يا سيّدي، ولذا أقضيها تجوالا. إلى هذا اليوم بالذات مازال يصفّق ويرسل قهقهات في جلسات الدائرة الضيّقة لقدماء موظّفي المستعمرات الذين كانوا يجتمعون خلال الأمسيات في حانة بيكر المجيدة مصرّين على تحدّي الموت، يلعبون الورق ويقصّون الحكايات.

كان فاوشتو يتغدّى في البيت، ينام القيلولة وبعد ذلك يجلس في الشرفة يتمتّع بنسائم المساء. في تلك الفترة، قبل الاستقلال، لم يكن يوجد السور العالي الذي يفصل بين الحديقة والرصيف والباب الخارجي كان دائما مفتوحا. يكفي الزبائن مجرّد صعود بعض الدرجات ليجدوا أنفسهم مباشرة أمام الكتب المكدّسة أكواما أكواما، والموضوعة بشكل عشوائيّ على أرضية الصالة الخشبية.

****

يجمعني بفيليكس فنتورا حبّ الكلمات القديمة (بالنسبة إلى حالتي لا أمل). كان أوّل من علّم فيليكس فنتورا هذا الاهتمام هو والده، فاوشتو بنديتو، وبعده كان أستاذا عجوزا درّسه خلال السنوات الأولى في المعهد، كانت لديه عادات سوداويّة. كان طويلا ومستقيما جدّا لدرجة يظهر وكأنّه نقش مصريّ. الأستاذ كان اسمه غاشبار. كان يتأثّر حين يعجز عن وجود بعض الكلمات. يلقيها ويتركها للحظات في مكان ما من براري اللغة ثم يحاول إنقاذها. يستعملها بتفاخر وتباه. ما يُفزع البعض منها يربك غيرهم. أعتقد أنّه انتصر. فتلاميذه بدأوا يستعملون تلك الكلمات، بداية من باب السخرية ثم صارت لهجة حميمية، وشما قبليّا يفصلهم تماما عن باقي الشبان. اليوم، أكّد لي فيليكس، أنّهم يستطيعون معرفة بعضهم البعض حتى وإن لم يلتقوا إطلاقا من قبل بمجرّد نطق الكلمات الأولى.

«إلى اليوم مازلت أحسّ بالرجفة حين أسمع أحدهم يقول «ادرودون»، مستعملا تعبيرا فرنسيا بشعا بدلا من «فروشيل»(لحاف محشيّ بالريش) والتي تظهر لي شخصيا، وأنا متأكّد من أنّك تشاطرني الرأي، أنّها كلمة جميلة جدّا ونبيلة. ولكن قبلت وتعوّدت على كلمة سوتيان (حمّالة الصدر). أما أشتورفياو (حمّالة الصدر في تعبير قديم) فعندها كرامة تاريخية أخرى. ولكن، صوا، هي غريبة نوعا ما. ألا تتفق معي؟»،

حـــلم رقم ١

أقطع شوارع مدينة غريبة وأتسلّل بين الحشود. كان قد مرّ بي ناس من كلّ الأعراق، ومن كلّ المتعقدات ومن كلّ الأجناس (إلى حدود زمن طويل كنت أعتقد أنّه لا يوجد سوى جنسين). رجال يلبسون الأسود، يضعون نظارات سوداء، يمسكون حقائب. رهبان بوذيّون يضحكون كثيرا سعداء كحبّات البرتقال. نساء شفافات. نساء بدينات كعربات التسوّق. مراهقات نحيفات بأحذية التزلّج. عصافير صغيرة تتسلّل بين الحشود. صبية في طابور هندي بملابس مدرسيّة فالذي في الخلف يمسك بيد الذي أمامه. أول الصبية تمشي أستاذة وخلفهم جميعا أستاذة أخرى. عرب بالجلابيب والطاقيات. صلع يمسكون كلابا بمقاود. شرطة. لصوص. مثقّفون منشغلون. عمّال بمعاطف العمل. لا أحد يراني. ولا حتّى مجموعات اليابانيين. أقف أمام الناس، أتكلّم معهم، أحيّيهم ولكنهم لا ينتبهون، لا يتكلّمون معي. أحلم بذلك منذ ثلاثة أيّام. في حياتي الأخرى، عندما كنت في الحالة البشرية، كان يحدث لي ذلك بطريقة متكرّرة. أذكر أنّي كنت أصحو بفم مرّ وقلب مليء بالقلق. أعتقد أنّ تلك الفترة كانت هاجسا لي. الآن، ربّما، صارت حقيقة. ومهما يكن الأمر فذلك لم يعد يحزنني.

ألــبــا

صباحا كانت تسمّى ألبا، أورورا أو لوسيا؛ عصرا داغمار؛ ومساء ستيلا. كانت طويلة، شديدة البياض. ليس بذلك الشكل غير الواضح والحليبيّ المنتشر بين نساء أوروبا الشمالية ولكن، بمسحة خفيفة من المرمر. شفّافة لدرجة رؤية تدفّق الدماء في جسمها. خشيتها قبل أن أراها. عندما أراها أفقد صوتي. مددت لها مرتعشا ظرفا مثنيا من الوسط وفي طرفه كتب أبي، إلى مدام داغمار، بذلك الخطّ الفاخر الذي يجعل من أيّة كتابة، مهما كانت بسيطة، بما في ذلك وصفة حساء، تظهر وكأنّها أمر من أحد الخلفاء. فتحتْه. أخرجتْ بطرف إصبع بطاقة صغيرة. ولمّا نظرت إليها لم أكن قادرا على على إخفاء البسمة:

«هل أنت عذراء؟!».

شعرت بأنّني غير صالح. نعم. فقد أكملت تسعة عشر عاما ولم تكن لي امرأة قطّ. داغمار قادتني من يدي عبر أروقة كالمتاهة وعندما انتبهت كنت أو بالأحرى كنّا في غرفة كبيرة بها مرايا كثيرة. إذن، مدّت يديها دون أن تبتسم إطلاقا، وانزلق فستانها بهمس حتّى قدميها:

«العقاب موت غير نافع، أيّها الصبي، وأنا أصلحه باللذة.»

تخيّلتها مع أبي في ظلّ تلك الغرفة الخفيف. كان ذلك برقا، وحيا. رأيتها مكرّرة في المرايا، تنزع الفستان وتحرّر النهدين. رأيت فخذيها العريضين. أحسست بحرارتهما ورأيت أبي. رأيت يديه القويّتين. سمعت قهقهته. قهقهة رجل ناضج ينقر جلدها. وسمعت الكلمة الكريهة. عشت تلك اللحظة بالذات،

آلاف بل ملايين المرّات برعب واشمئزاز.عشتها حتى آخر أيام حياتي.

****

يحضرني بيت شعر حزين لكاتب لا أذكره. ربّما حلمت به. وربما يكون لازمة لأغنية فادو أو تانغو، أو سامبا قديمة سمعتها عندما كنت صغيرا:

«أقسى خطيئة ألا تحبّ».

وُجدت نساء كثيرات في حياتي ولكن أخشى أنّي لم أحبّ واحدة. ليس عشقا. لا. ربّما كما تتطلّب الطبيعة. أفكّر في ذلك برعب. وضعي الحالي - يعذّبني الشكّ - هو عقاب ساخر. هو هكذا أو هو مجرّد تسلية.

ميلاد جوزيه بوشمان

أعلن الغريب هذه المرّة عن زيارته قبل أن يظهر. هاتَف. وفيليكس فنتورا وجد الوقت الكافي ليستعدّ. عندما حلّت الساعة السابعة والنصف كان قد لبس وكأنّه ينتظر زفافا، هو فيه العريس أو والد العريس. في بدلة بيضاء من الكتّان الصافي وعليها تلمع، كأنّها علامة تعجّب، ربطة عنق من الحرير الأحمر كان قد ورثها عن أبيه.

«هل تنتظر أحدا؟».

أنتظره هو. تركتْ له فاليا إشبيرنسا حساء سمك في الفرن كي لا يبرد. كانت قد اشترت في ذلك الفجر سمكة قجاج رائعة، مباشرة من صيّادي السمك في الجزيرة، وخمس شرائح من سمك السلور المدخّن من سوق ساو باولو. كانت ابنة عمّتها قد جلبت لها من غابيلا بعض التوت المعطّر من جندونغو، نار في حالة صلبة، كما فسّر لي الأمهق. هذا إلى جانب طعام المنديوكا، والبطاطا الحلوة، والسبانخ والطماطم. هكذا، ما إن وضع الأمهق الطبق على الطاولة، حتّى انتشرت في الصالة رائحة قويّة حارّة كأنّها عناق، وللمرّة الأولى منذ زمن طويل، تأسّفت لوضعي الحاليّ. أنا أيضا أحبّ أن أجلس إلى المائدة. أكل الغريب بشهية مشعّة وكأنّه لا يلتذّذ فقط بلحم سمك القجاج وإنّما بحياته كاملة، كان سنوات وسنوات منزلقا بين سرب مفاجئ، هيجان الماء، خيوط النور الثقيلة التي تسقط، في العشيات المشمسة، في هوّة الأزرق.

«إنّه تدريب مهمّ»، قال، «أن تحاول رؤية الأحداث من خلال نظرة الضحيّة. مثلا، السمكة التي نحن بصدد أكْلها.... هي سمكة قجاج كريمة، أليس كذلك؟ .... هل حاولت أن ترى عشاءنا هذا من وجهة نظرها هي؟».

ألقى فيليكس فنتورا، بانتباه، نظرة على السمكة، كانت المسكينة حتّى تلك اللحظة لا تستحقها؛ وبعد ذلك أبعد الصحن مذعورا . وواصل الآخر وحيدا:

«هل تعتقد أنّ الحياة تطلب منّا أن نحبّها؟» لا أعتقد. ما تطلبه منّا الحياة هو أن نحتفل. لنعد إلى سمكة القجاج. لو كنت أنت هذه السمكة فهل تفضّل أن آكلك بفرح أو بحسرة؟» نظر الأمهق إليه صامتا. هو يعرف أنّها سمكة قجاج (كلّنا كذلك) لكنّه، حسب اعتقادي، يفضّل ألا نأكله أبدا. وواصل الغريب:

أخذوني ذات مناسبة إلى حفلة. كان هناك رجل مسنّ يحتفل بعيد ميلاده المائة. أردت أن أعرف بماذا يشعر. ابتسم الرجل المسكين لي مذهولا وقال، لا أعرف بالضبط، فكلّ شيء حصل بسرعة كبيرة. كان يشير إلى السنوات المائة من عمره وكأنّه يتحدّث عن كارثة، كأنّ شيئا انهار عليه منذ دقائق خلتْ. أحيانا أشعر بالشيء نفسه. يُؤلم روحي طول الماضي والفراغ. أشعر وكأنّني ذلك المسنّ.»

شرب الكأس:

«ولكنّني مازلت حيّا. عشت. وبدأت أفهم ذلك، وإن بدا لك غريبا، عندما شددت الرحيل إلى لواندا. إلى الحياة. أجل! أنغولا أعادتني إلى الحياة، وإلى هذا النبيذ الميمون الذي يحتفل بنا ويجمعنا.»

كم عمره يا ترى؟ ربّما ستّون سنة، وفي هذه الحالة، فقد اعتنى بجسمه جيّدا طول حياته أو أربعون أو خمس وأربعون. لا بدّ إذن أن يكون قد مرّ بيأس عميق. حين رأيته هناك جالسا حسبته صلبا كوحيد القرن. فعيناه تينك، تبدوان قديمتين جدّا، محمّلتين بالكفر والتعب. حتّى وإن كان في لحظات معيّنة، مثلما

يحدث الآن، يشرب الكأس ويحتفل بالحياة فإنّ ضوءا من الزمن القديم ينيره.

«كم عمرك؟».

«هل تسمح لي بأن أطرح أنا الأسئلة. هل حصلت على ما طلبت منك؟».

تطلّع فيليكس بعينيه. لقد تحصّل على المطلوب. كانت هناك بطاقة هويّة، جواز سفر، رخصة سياقة، تلك الوثائق باسم جوزيه بوشمان، أصيل شبيا، ٥٢ سنة، مصوّر فوتوغرافي محترف.

بلدة ساو بيدرو دا شبيا، في مقاطعة هيولا، في جنوب البلاد، كان قد أسّسها مستعمرون ماديريون في سنة ١٨٨٤ وهناك ازدهروا فربّوا الماشية وزرعوا الأرض وحمدوا الله الذي أوجد بِيضا في أرض سُود. هكذا يقول فيليكس فنتورا، طبعا، فأنا مجرّد ناقل. بضع عائلات بورية. كان يرأس العرش القائد جاكوبوس بوطا. وكان الملازم رجلا ضخما، داكنا، أحمر الشعر. اسمه كورنيليو بوشمان، كان قد تزوّج سنة ١٨٩٨ بشابّة من ماديرا، مارتا ميديورش، ومنها أنجب طفلين. الأكبر، بيتر، مات صغيرا. والأصغر، ماتيوش، كان صيّادا مشهورا وعمل لسنوات دليلا لمجموعات سياحية من جنوب أفريقيا وأنجليز كانوا يأتون إلى أنغولا بحثا عن إثارة قويّة. تزوّج متأخّرا بعد أن تجاوز الخمسين مع فنّانة أمريكية، إيفا ميلر، وأنجب ابنا وحيدا: جوزيه بوشمان.

بعد أن أنهيا العشاء، وبعد أن شرب شايه بالنعناع - فضّل جوزيه بوشمان قهوة - ذهب الأمهق ليجلب حقيبة من الكرتون ثمّ ضعها على الطاولة. أظهر له جواز السفر، بطاقة الهويّة، رخصة السياقة. كانت هناك أيضا صورا متعدّدة. واحدة منها بمسحة بنية داكنة، متردّية كثيرا، يظهر فيها رجل ضخم

بملامح ناصعة يمتطي حصانا:

«هذا» قدّم الأمهق له الصورة «هو كورنيليو بوشمان، جدّك.»

في صورة أخرى، زوجان متعانقان، بجانب نهر، مقابل أفق شاسع بلا نهاية. الرجل عيناه نازلتان، والمرأة بفستان مطرّز بالورود، تبتسم لآلة التصوير. جوزيه بوشمان مسك بالصورة وقام ووضعها مباشرة أمام نور الفانوس. اضطرب صوته قليلا:

«هؤلاء أبواي؟».

أكّد له الأمهق ذلك. ماتيوش بوشمان وإيفا ميلر، في عشيّة مشمسة أمام نهر شمبومبونهيم. لا بدّ أن يكون هو نفسه، جوزيه، وعمره وقتئذ أحد عشرة سنة. يتثبّت في تلك اللحظة.

قدّم له عددا قديما من مجلة « فوغ» يحتوي على تقرير حول الصيد الكبير في إفريقيا الجنوبية. التقرير يعرض لوحة مائية مصحوبة بمشهد لحياة الغاب ـ فيلة تسبح في بحيرة ـ موقّعة من إيفا ميلر.

أشهر قليلة بعد تلك الصورة. يجري النهر واثقا نحو مصبّه، والأعشاب البريّة الطويلة ذات أصيل مهيب. رحلت إيفا إلى مدينة كابو في سفرة كانت مقرّرة لمدّة شهر ولم تعد أبدا. كاتب ماتيوش بوشمان أصدقاء مشتركين في جنوب إفريقيا طالبا معلومات عن زوجته. وعندما لم يحصل على شيء ترك ابنه عند خادم مسنّ كفيف ورحل باحثا عنها.

«وهل عثر عليها؟».

هزّ فيليكس كتفيه. جمع الصور، الوثائق، المجلّة واحتفظ بها كلّها في الحقيبة الكرتونية، أغلقها ولفّها بشريط أحمر كأنّها هديّة وقدّمها لجوزيه بوشمان.

«عفوا على التحذير»، قال،»لا يجب أن تطأ قدماك شبيا.»

أدركتُ السّنة الخامسة عشر وروحي سجينة هذا الجسم ومازلت لم أتطابق معه بعد. عشت قرنا تقريبا لابسا جلد إنسان ولكنّني لم أشعر أبدا ببشريّتي. عرفت إلى حدّ الآن ثلاثين وزغة من خمس أو ستّ فصائل مختلفة، لا أعرف بالضبط، فعِلم الأحياء لم يكن يستهويني أبدا. عشرون منها تأكل الرزّ، أو تتسلّق المباني في الصين الشاسعة، تتحمّل ضجيج الهند أو باكستان قبل أن تصحو من ذلك الكابوس الأوّل لتستيقظ في هذا الكابوس الثاني. أعتقد أنّه بالنسبة إلى جميع تلك الوزغات لا يوجد فرق يذكر. سبعة منهم كانوا يعملون الشيء نفسه أو تقريبا في إفريقيا، واحد كان طبيب أسنان في بوسطن، وآخر كان بائع ورود في بيلو أوريزونت، في البرازيل، والأخير كان كاردينالا. أحنّ إلى الفاتيكان. الكاردينال كان يحبّ غابريال غارسيا ماركيز. طبيب الأسنان قال لي أنّه قرأ باولو كويليو. أنا لم أقرأ أبدا باولو كويليو. أعوّض متعتي مع صحبة الوزغات والسحليات بالمواساة الطويلة لفيليكس فنتورا. أسرّ لي أمس أنّه تعرّف على امرأة خارقة للعادة. وصفها بامرأة فقط لم تظهر له مناسبة فأضاف:

«مقام أنجيلا لوسيا بين النساء كمقام الإنسانية من القردة».

جملة بشعة. لكن الاسم أيقظ اسما آخر في داخلي، ألبا، وبقيت فجأة في حالة خطيرة وحرجة. تذكّر المرأة جعله ثرثارا. يتحدّث عنها كمن يجتهد

ليعدّ مادّة لمعجزة ما.

«هي هكذا...» وصمت برهة. كفاه مفتوحان، عيناه ضيّقتان تجاهدان للتركيز. أطال في إيجاد الكلمات:»نور خالص!».

لم يظهر لي مستحيلا. إنّ الاسم يمكن أن يصير تهمة. بعض الأسماء تسحق حاملها كمياه نهر طينية بعد نزول أمطار غزيرة، وبالرغم من مقاومته، فإنّ تلك الأمطار تحدّد له مصيرا آخر. أسماء أخرى، على العكس، تشبه الأقنعة: تحجب وتخدع. أما عموم الأسماء، لا محالة، ليس عندها أيّة سلطة. أتذكّر دون متعة، ودون ألم أيضا، اسمي البشريّ. لا أشعر بفقدانه. فأنا لم أكن أنا.

****

أصبحت زيارات جوزيه بوشمان إلى هذه السفينة منتظمة. صوت جديد ينضمّ إلى الأصوات الأخرى. يريد من الأمهق أن يضيف له ماضيا. لا يقتصد في الأسئلة:

«ماذا حصل لأمّي؟».

صديقي (وأعتقد أنه يحقّ لي أن أناديه هكذا) أحسّ بقليل من الملل بعد ذلك الإصرار. فقد نفّذ المطلوب منه وهو ليس مجبرا على ما هو أكثر. و مع ذلك يتنازل في بعض الأحيان. إيفا ميلر لم تعد إلى أنغولا. أحد زبائن أبيه، من عائلات الجنوب، مثل آل بوشمان، وهو المسنّ بيزيرا وجدها صدفة ذات عشيّة في شارع من شوارع نيويورك. كانت سيّدة هشّة، متقدّمة في السنّ، تمشي ببطء مرهق، « كعصفور مقطوع الجناح»، قال له بيزيرا. سقطت في أحضانه

في منعطف ما، سقطت حقيقة في أحضانه وهو، من وقع الرعب، لفظ كلاما بجلافة أهل نهانهيكا ـ هومب. ردّت المرأة بابتسامة عريضة:

«هذه الأشياء لا تقال لسيّدة!».

لحظتها فقط عرفها. جلسا في مقهى مهاجرين كوبيين وتحدّثا حتّى هبوط الليل. قال فيليكس ذلك وصمت قليلا:

«حتّى نزول الليل»، أصلح، «في نيويورك الليل ينزل، لا يهبط؛ هنا نعم. يهوي من السماء.»

صديقي يهتمّ كثيرا بدقّة الكلمات. الليل يهوي من السماء وأضاف: كطير جارح. انقطاعات بهذا الشكل تربك جوزيه بوشمان. هو يريد أن يعرف الباقي:

«وبعد ذلك؟».

كانت إيفا ميلر تعمل مصمّمة بيوت. كانت تعيش وحيدة في مانهاتن في شقّة صغيرة تطلّ على سنترال بارك. جدران الصالة الصغيرة جدّا وجدران الغرفة الوحيدة، وجدران الرواق الضيق كلّها مغلّفة بالمرايا. قاطعه جوزيه بوشمان:

«مرايا؟!...»

نعم. واصل صديقي ولكن واثقا فيما قاله له العجوز بيزيرا. لا يتعلّق الأمر بمرايا عاديّة. ابتسم. فهِم أنّ قوّة حكايته الخاصّة تكاد تمحقه. كانت تحفا من السوق الشعبية، زجاجا مهشّما، مصمّما عن قصد لالتقاط وتشويه صورة

كلّ شخص يتقدّمها. بالنسبة إلى البعض كانت فرصة قويّة لتحويل الشخص من إنسان أنيق إلى قزم بدين؛ وإلى البعض الآخر كانت مناسبة لتمطيطهم. كانت هناك مرايا قادرة على إنارة روح مظلمة. آخرون عكست، لا شكلهم الأمامي، وإنما مؤخرات أعناقهم وظهورهم. هناك مرايا مجيدة ومرايا سيئة السمعة. فكلما دخلت إيفا ميلر إلى شقتها فإنّها لا تشعر بالوحدة. يدخل معها حشد من الناس.

«هل عندك عنوان السيد بيزيرا هذا؟».

نظر فيليكس فنتورا إليه مستغربا. هزّ كتفيه، وكأنّه يكاد يقول، إذا أردتني أن أذهب إلى هناك، حسنا، سأفعل. وأعلمه أنّ الرجل المسكين مات منذ أشهر قليلة في لشبونة.

«سرطان»، قال، «سرطان الرئة. كان يدخن كثيرا.»

ظلا الاثنان يفكران كلاهما في صمت في موت بيزيرا. الليل كان دافئا ورطبا. تهبّ من النافذة نسمات هادئة. تأتي محمّلة ببعوض ناعم وجميل، يطير بخفة مفتونا بالنور. شعرت بالجوع. نظر صديقى إلى الآخر وضحك بمتعة:

«تبا! لابدّ أن تدفع لي ثمن ساعات إضافية. هل تظنّ أنّ لي وجه شهرزاد؟...»

حلـم رقم ٢

كان هناك شابّ في انتظاري. كان جاثما قرب الجدار، فتح يديه فرأيتهما ممتلئتين بحروق خضراء، خفية، مادّة سحرية سرعان ما اختفت في الظلام. «يرعات»، قال سرّا، كان هناك نهر ينزلق خلف الجدار، معتما وقويّا، يلهث بضجر في شكل درواس. وخلفه تبدأ غابة. الجدار القصير المبنيّ بحجارة صلبة يمنع رؤية المياه السوداء. النجوم تجري على سطحها. الأعشاب ثقيلة في القاع كأنّها في أعماق بئر. يصعد الشابّ فوق الحجر ولكن دون جدوى. ظلّ للحظات دون حراك ورأسه غارق في الليل وبعدها قفز إلى الضفّة الأخرى. في الحلم مازلت شابّا، طويلا، متجّها نحو البدانة. أرهقني قليلا تسلّق الجدار. بعد ذلك قفزت. جثوت على ركبتيّ فوق الطين والنهر جاء ليغسل يديّ.

«ما هذا؟».

لم يردّ الشابّ. كان يدير لي ظهره. بشرته كانت أشدّ سوادا من الليل، ناعمة ولامعة. وأيضا فيها، كما في النهر، تدور حلقة من النجوم. كنت أراه يتقدّم في معدن المياه حتّى اختفى. ظهر بعد لحظات في الضفّة الأخرى للنهر الجالس تحت أقدام الغابة. كان قدم نام أخيرا. واصلت الجلوس هناك وقتا طويلا. ومن المؤكّد لو أنّني بذلت جهدا، لو بقيت هامدا كليّا ومستيقظا، لو تلمّست روحي، ما أدراني! بشكل ما فإنّه عند توهّج النجوم أستطيع سماع صوت الله. وبدأت فعلا أسمعه. كان صوتا أجشّا يهسهس كغلاية على النار. اجتهدت كي أفهم ماذا كان يقول عندما شاهدته يخرج من الظلال أمامي مباشرة. كان كلب صيد نحيف، يحمل راديو صغير من ذلك النوع الذي

يوضع في الجيب. كان معلّقا في عنقه. الجهاز كان سيّء الضبط. يخرج صوت رجل، عميق، من قاع الأرض، يصارع بصعوبة ضدّ الاضطرابات الكهربائية:

«أقسى خطيئة ألا نحبّ»، قال الله. صوت ناعم لمغنّي تانغو:» هذه الحلقة برعاية اتّحاد مخابز ماريمبا.»

ابتعد الكلب بعد ذلك، كان يعرج قليلا، وكلّ شيء عاد من جديد إلى الصمت. تسلّقت الجدار ورحلت باتّجاه أنوار المدينة. وقبل أن أدرك الطريق رأيت الشابّ من جديد. مازال قرب الجدار معانقا الكلب. الاثنان نظرا إليّ وكأنّهما كائن واحد. أدرت لهما ظهري ولكن مازلت أشعر (وكأنّ شيئا مظلما يضربني من الخلف) بنظرة التحدّي من الشابّ والكلب معا. استيقظت مذعورا. كنت في شقّ رطب. نمل يعبر بينِ أصابعي. ذهبت أبحث عن الليل. أحلامي تقريبا دائما معقولة أكثر من الواقع.

نـــور ســاطــع

تخيّلتها، حسب وصف صديقي لها بالشعلة، هذا زيادة على إضافته بأنّها صنف من ملاك نورانيّ مفترضا أن يكون ثريّا. أعتقد أنّ فيليكس قد بالغ قليلا. في حفلة ضائعة بين الدخان والاضطراب لم أنتبه لها. أنجيلا لوسيا امرأة شابّة، سمراء البشرة، رقيقة الملامح، جدائلها سوداء، رقيقة تتدلّى على الكتفين. كان وصفه حقيرا. ورغم كل شيء فأنا مجبر على الاعتراف بوصفه. فبشرتها تنعكس عديد المرآت وخاصّة عندما تتحرّك أو تقفز مثل ومضات النحاس وفي هذه الحالة تتحوّل وتصير فعلا جميلة. وما أثارني، حقيقة، كان صوتها الأجشّ واللطيف والمثير. وصل فيليكس إلى المنزل هذا المساء. جلبها أمامه وكأنّها غنيمة. تنظر أنجيلا لوسيا بعناية إلى الكتب والاسطوانات. ضحكت كثيرا عندما رأت ثقة النفس المتقشّفة لفريديريك دوغلاس.

« وهذا الشيخ، ماذا يفعل هنا؟».

« إنّها صورة لوالد جدّي»، أجاب الأمهق، «والد جدّي فريديريكو، أب جدّي لأبي.»

الرجل استثرى في القرن التاسع عشر من تجارة العبيد. وبعد إلغاء تلك التجارة اشترى مزرعة في ريو دي جانيرو وهناك عاش سنوات طويلة وسعيدة.

عاد إلى أنغولا وقد صار عجوزا فجلب معه بنتين، توأمين متشابهين، كانتا صبيّتين. والألسن الخبيثة لم تتأخّر كثيرا لتشكّ في صلة الأبوّة. كذّب العجوز ذلك فرحا. ضاجع خادمة؛ فأنجبت له هذه المرة صبيّا بعينين يشبهان

تماما عينيه. كانت نظرته مخيفة. واللوحة المعلّقة هناك، كانت لرسّام فرنسيّ. طلبت أنجيلا لوسيا الإذن بتصوير اللوحة. وبعد ذلك طلبت الإذن بتصويره هو، صديقي، جالسا على كرسيّ السعف الكبير الذي كان والد جدّه، تاجر العبيد، قد جلبه معه من البرازيل. النور الأخير بدأ يندثر موتا ناعما على الجدران الخلفية.

«نور مثل هذا، هل تصدّق؟ لم أجده إلا هنا!».

قالت إنّها تستطيع التعرّف على أماكن معيّنة في العالم من خلال النور. في لشبونة ينزل النور في نهاية الربيع مجنونا على المنازل، أبيض ورطبا ومالحا قليلا. وفي ريو دي جانيرو، في ذلك الفصل الذي يسمّونه بداهة الخريف، وحيث يؤكّد الأوروبيون ذلك باحتقار خياليّ تماما، يصير النور أكثر ليونة مثل بريق الحرير مصحوبا أحيانا بغبار رطب يغطّي الشوارع وينزل بعد ذلك ببطء حزينا على الساحات والحدائق. وفي الحقول الغارقة في بنطنال دي ماطو غروسو، في الصباح الباكر، تعبر الباباغوات الزرق السماء، تنثر بأجنحتها نورا برّاقا وبطيئا حيث يستقرّ رويدا رويدا فوق المياه فينمو إذ تحرّكتْ ويبدو كأنّه يغنّي. في غابة طمان نيغارا في ماليزيا، النور مادة سائلة، تلتصق بالجلد ولها رائحة وطعم. في غووا، النور مادّة خامّة وصاخبة. في برلين، السماء باسمة دائما، على الأقلّ خلال اللحظات التي تستطيع فيها اختراق السحاب وثقبه، مثل تلك اللصاقات البيئية ضدّ الطاقة النووية، أو في السماوات غير المحتملة. اكتشفتْ أنجيلا لوسيا بريقا لا بدّ أن يكون سببه النسيان؛ فقبل زيارة البلدان الاسكندنافية، كانت تعتقد أنّه، هناك، في أشهر الشتاء الطويلة

جدا يكون النور مجرّد حدس. كلا، فالغيوم تضـيء البحيرات بوميض الأمل. قالت ذلك وقامت. أخذتْ نفسا دراميا:

«وفي مصر؟ في القاهرة، هل زرت القاهرة؟ بجانب أهرامات الجيزة؟...» بسطت يديها وخطبت:»النور ينزل خارقا قويّا للغاية، حيّا، ينزل على الأشياء وكأنّه نوع من الضباب المنير».

«هذا إيسا دي كايروش!»، وابتسم الأمهق:»أتعرّف عليه من خلال النعوت، بنفس الطريقة التي أستطيع بها التعرّف على نيلسون مانديلا فقط من خلال القمصان. إنّها، على ما أعتقد، العبارات التي كتبها خلال رحلته إلى مصر.»

صفّرت أنجيلا لوسيا فرحا وإعجابا؛ صفّقت. كان، إذن، حقيقة ما قالوه عنه من أنّه قرأ الكتب الكلاسكية البرتغالية من الخيط إلى الفتيل، أعمال إيسا دي كايروش كاملة، وأعمال الملهم كاميلو كاشتيلو برانكو! عطس الأمهق، احمرّ وجهه خجلا فغيّر الموضوع. قال لها إنّه عنده صديق مصوّر فوتوغرافي مثلها عاش زمنا طويلا في المهجر وعاد منذ مدّة قصيرة إلى البلد. مصوّر حروب. «ألا ترغبين في التعرّف عليه؟».

«مصوّر حروب؟» نظرت إليه أنجيلا مذعورة:

«ما علاقتي بهذا؟! لا أعرف حتى إن كنت مصوّرة فوتوغرافية. أنا أجمع الألوان».

أخرجت علبة بلاستيكية من حافظتها وأرتها للأمهق»هذا نوري الساطع»،

قالت، «شرائح.»

تحمل معها دائما بعض النماذج متعدّدة الأشكال من النور الساطع. كانت مأخوذة دائما بالنور سواء في غابات إفريقيا، في المدن الأوروبية القديمة، أو في تلال أمريكا اللاتينية وغاباتها. أنوار، ومضات، لهيب صغير، كلّها في علبة صغيرة بلاستيكية وبها تغذّي روحها في الأيّام المظلمة. سألتْ إن كان يوجد في البيت جهاز عرض فيديو. صديقي قال لها نعم، وذهب يبحث عن الجهاز. بعد دقائق صرنا في كاشويرا، مدينة صغيرة في روكانكافو بايانو:

«كاشويرا! لقد وصلت في حافلة قديمة. مشيت قليلا والحقيبة على ظهري أبحث عن مكان للاستراحة فعثرتُ على هذه الساحة المهجورة. حلّت العشية. تكوّنت عاصفة استوائية من جهة الشرق. ركضت الشمس بلونها النحاسيّ في اتّجاه الأرض حتى اصطدمت بجدار السحب السوداء، علاوة على البيوت الكولونيالية الكبيرة. كان سيناريو دراميا، ألا تعتقد؟» تنهّدتْ. بشرتها كانت تلمع والعينان الجميلتان تذرفان الدمع:»وإذن، رأيت وجه الله!».

فلسفة الوزغة

كنت أدرس منذ أسابيع جوزيه بوشمان. لاحظت أنّه قد تغيّر. فليس هو الرجل نفسه الذيَ دخل هذا البيت منذ ستّة أو سبعة أشهر خلتْ. شيئا ما من طبيعة التحوّلات العظيمة كان قد عمل في داخله. وربّما، مثل الشرنقات، سرتْ فيه فورة سريّة من أنزيمات تحللّ الأعضاء. يمكن أن نثبت أنّنا كلّنا عرضة للتحوّل. نعم، فأنا لست نفس الكائن الذي كنته أمس. الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر فيّ هو ماضيّ: ذكريات ماضيّ البشريّ. يكون الماضي عادة ثابتا. هو دائما هناك، جميل أو مرعب، وهناك يبقى إلى الأبد.

(كنت أعتقد ذلك قبل معرفة فيليكس فنتورا.)

عندما نصير مسنّين لا تبقى لنا غير حقيقة وحيدة؛ أنّنا قريبا سنصير أكبر سنّا. فأن نقول لشخص ما بأنّه شابّ، فنحن لا نستخدم العبارة المناسبة. أحدهم هو شابّ، وهذا صحيح، مثله كمثل كوب يظلّ سليما للحظات قبل أن يتحطّم على الأرض. ولكن أعذروني عن هذا الانحراف؛ فهذا ما يحصل عندما تبدأ وزغة في التفلسف. لنعد، إذن، إلى جوزيه بوشمان. لست أفترض أنّه، وخلال أسابيع، سينفجر في داخله نابتة له أجنحة ملوّنة. فراشة عظيمة. أشير، فقط، إلى التغييرات الأكثر رقّة. أولا، لقد بدأ في تغيير لكنته إذ خسر، وهو بصدد خسارة ذلك اللفظ السلافي والبرازيلي، الخليط بين الحلاوة والهسهسة التي كان في البداية قد أربكني بها كثيرا. فقد تعوّد الآن على وتيرة لُواندية. أصبح يستعمل قمصان حرير مختومة، وصار يلبس أحذية رياضية. أعتقد أيضا أنّه صار جافّا شيئا ما. يضحك. لقد أصبح أنغوليا. علاوة على ذلك فقد أزال الشارب. صار أكثر شبابا. ظهر عندنا في البيت هذه الليلة، بعد حوالي أسبوع من الغياب، وما إن فتح له الأمهق الباب حتى أطلق:

«كنت في شبيا!».

جاء محموما. جلس على الكرسيّ الملكيّ الذي جلبه جدّ الأمهق من البرازيل. وضع ساقا على ساق. طلب ويسكي. خدمه صديقي بملل. يا إلهي ماذا كان يفعل في شبيا؟.

«ذهبت لأزور قبر أبي.»

ماذا؟ الآخر اختنق. أيّ أب، ماتيوش بوشمان الوهمي؟.

«أبي! ماتيوش بوشمان يمكن أن يكون شخصيّة خيالية عندك، محبوكة بدرجة عالية. ولكن، القبر وأقسم لك، حقيقة وواقع.»

فتح الظرف وأخرج بعض الصور الملوّنة ونشرها على ظهر المائدة الصغيرة. تظهر في الصورة الأولى مقبرة؛ في الثانية يمكن أن نقرأ شاهدة أحد القبور:»ماتيوش بوشمان |١٩٠٥ ـ١٩٧٨». والبقية كانت صورا للبلدة:

- بيوت واطئة.
- شوارع مستقيمة، مفتوحة وعريضة وبها مشاهد خضراء.
- شوارع مستقيمة، مفتوحة وعريضة لسلام كبير صاف، بلا سحب.
- دجاج ينقر في قلب غبار أحمر.
- رجل مسنّ (هجين) يجلس حزينا على طاولة في حانة شاردا وأمامه قنينة فارغة.
- زهور ذابلة في مزهريّة.

- قفص ضخم بدون عصافير.

- زوجيْ حذاء باليين تحت شمس إحدى المنازل.

في كلّ الصور كان هناك شيء ما شفقيّ. كان نهاية أو تقريبا ما يشبه نهاية ولكن لا أدري ماذا هو بالضبط.

« ألححتُ عليك، طلبت منك، حذّرتك بألا تذهب أبدا إلى شببا!».

«أعرف ذلك جيّدا ولهذا ذهبت...»

صديقي حرّك رأسه. لا أدري إن كان عصبيا أو متسليّا أو الاثنين معا. فحص مليّا صورة القبر. وضحك واثقا:

«عمل جيّد. وأنا أكلّمك هنا كمحترف. هنيئا لك!».

أوهـــام

رأيت هذا الفجر في حديقة المنزل طفلين يقلّدان الحمام. كان أحدهما جالسا على مقعد صغير فوق الحائط. تظهر ساق من هذه الجهة وساق من الجهة الأخرى. أمّا الطفل الآخر فكان يتسلّق شجرة الأفوكادو. يقطف ثمارها ويلقيها للأوّل، وهذا يلتقطها في الهواء بمهارة لاعب ويضعها في كيس. فجأة الذي كان فوق الشجرة شبه محجوب بين الأوراق(أنا رأيت فقط وجهه وكتفيه) وضع يديه على فمه وبدأ يهدل. ضحك الآخر وقلّده. هديل وكأنّ الطيور موجودة فعلا هناك. أحدهما، فوق الحائط، وآخر فوق جذع شجرة الأفوكادو الأطول، أصوات حادّة قادرة على طرد الأرواح المبثوثة في الظلال. ذكّرني هذا المشهد بجوزيه بوشمان. رأيته يدخل هذا المنزل بشارب خارق للعادة، لسيّد من القرن التاسع عشر، وببدلة داكنة من الطراز القديم وكأنّه أجنبيّ في كلّ شيء. أراه الآن يتغيّر يوما بعد يوم. يدخل بقميص حرير بألوان مشكّلة. ويطلق قهقهة عريضة ويبدو ببهجة وقحة كعادة أهل البلد. فلو لم أكن قد رأيت الطفلين، لو سمعت الأصوات فقط، لأعتقدتُ أنّه كان هناك هديل حمام حقيقيّ في ذلك الفجر الرطب. أنظر إلى الماضي وأستحضره هنا كما أستحضر لوحة كبيرة أمامي فأرى أنّ جوزيه بوشمان ليس هو جوزيه بوشمان، بل هو أجنبيّ يقلّد جوزيه بوشمان. ولكن، لو أغضّ البصر عن الماضي، ويأتي هو الآن، كما لم أره من قبل، فلا مفرّ من التصديق ـ ذلك الرجل هو جوزيه بوشمان نفسه طول حياته.

أنا لم أتوفّ فــــي موتـــي الأوّل

قرّرتُ ذات يوم، في شكلي البشريّ السابق، أن أقتل نفسي. أن أموت نهائيا. كان عندي أمل أنّ الحياة الخالدة، الجنّة والنار، الله والشيطان، تناسخ الأرواح، كان كلّ ذلك مجرّد خرافات منسوجة طويلا على مرّ قرون وقرون من الرعب الشاسع للبشر. اشتريت مسدّسا من محلّ لبيع السلاح لا يبعد سوى بعض الخطوات عن بيتي ولكنّني لم أدخله مطلقا سابقا، وحتّى صاحبه لم يتعرّف عليّ. بعد ذلك اشتريت كتابا بوليسيا وقنّينة لمشروب العرعر. ذهبت إلى فندق على الشاطئ. شربت العرعر بقرف وبجرعات كبيرة (الكحول من الأشياء التي كنت دئما أكرهها) واستلقيت على السرير أقرأ الكتاب. كنت أعتقد أنّ العرعر، إضافة إلى الملل من مؤامرة ساذجة، سيكون كافيا لأضع المسدّس في قفاي وأضغط على الزّناد. ولكن الكتاب لم يكن سيّئا، وقد قرأته حتّى النهاية. وعندما وصلت إلى الصفحة الأخيرة بدأت تمطر. كانت كأنّها تمطر ظلاما. أشرح بطريقة أفضل: كما لو أنّ شظايا نزلت من السماء، من ذلك المحيط المظلم والنعسان الذي تسبح فيه النجوم. بقيت أنتظر أن أراها تسقط لتتكسر بعد ذلك بضجيج ولمعان حين تضرب الزجاج. لم تسقط. أطفأت القنديل. وضعت المسدّس على قفاي ونمت.



حلم رقم ٣

حلمت أنّني أشرب شايا مع فيليكس فنتورا. نشرب شايا ونأكل خبزا محمّصا ونتحدّث. حصل ذلك في قاعة كبيرة من طراز « الفن الجديد» حيث الجدران مغلّفة بمرايا مؤطّرة على طريقة جكارندا. قمريّة ملوّنة جميلة تحمل ملاكين بجناحين مفتوحين تترك نورا بهيجا يمرّ. كانت هناك طاولات أخرى حولنا. ناس يجلسون ولكنّهم بدون وجوه، أو أنّني لم أر وجوههم، وهذا يمثّل الشيء نفسه بالنسبة إليّ. فكلّ وجودهم يتلخّص في وشوشات خفيفة. يمكن أن أرى شكلي منعكسا في المرايا. رجل طويل، عريض الوجه، ممتلئ، متعب وشاحب. ازدراء مقنّع من باقي البشرية. كنت منذ زمن بعيد أعيش مجدي المشكوك فيه خلال سنواتي الثلاثين.

«أنت الذي اختلقته هذا الغريب جوزيه بوشمان وهو الآن بدأ يخلق نفسه بنفسه. بالنسبة إليّ هذا تحوّل...تناسخ أرواح أو، بالأحرى، مسّ من الجنّ.»

نظر صديقي إليّ مذعورا:

«ماذا تعني؟».

«جوزيه بوشمان، أتظنّ أنّك لم تفهم؟ لقد استولى على جسم الغريب. ولو يمرّ أمامنا فستراه حقيقيّا أكثر. أمّا الآخر، الذي كان موجودا من قبل، ذلك الشخص الليليّ الذي دخل بيتنا منذ ما يقارب الثمانية أشهر، وكأنّه قادم، ولن أقول من بلد آخر، ولكن من عصر آخر، أين هو الآن؟»

«إنّها لعبة. أعرف أنّها لعبة. كلّنا يعرف ذلك.»

صبّ الشاي. وضع فيه قطعتيْ سكّر وحرّكه. شربه بعينين منخفضتين. كنّا سيّدين، صديقين حميمين، نلبس الأبيض في مقهى فخم. نشرب الشاي

ونأكل الخبز المحمّص ونتحدّث.

«ليكن»، وافقت، «لنعتبر أنّ ذلك لا يتجاوز مجرّد لعبة. فمن يكون، إذن، ذلك الشخص؟».

مسحت العرق عن وجهي. لم أعرف قطّ بالشجاعة وربّما، لهذا السبب، تعرّضت للخيانة (أقصد في حياتي الأخرى) قبل المصير الصاخب للأبطال والأشرار. جمعت سكاكين وزنبرك. تفاخرت باعتزاز، واليوم هو مصدر عار، بمآثر جدّي الجنرال. كانتْ لي صداقة مع بعض الرجال الشجعان، ولكن ذلك، للأسف، لم يساعدني. الشجاعة ليست معدية؛ الخوف نعم. ابتسم فيليكس حين فهِم أن هلعي كان أكبر وأقدم من هلعه:

«ليس لديّ فكرة. وأنت؟».

غيّر الموضوع. حكى أنّه كان قد حضر منذ أيّام تقديم رواية جديدة لكاتب من الشتات. كان شخصا غير مهمّ، محترف غاضب كان قد صنع تجربته كلّها في الخارج يبيع للقرّاء الأوربيين الفظائع الوطنية. يجلب البؤس نجاحا كبيرا في البلدان الغنيّة. المقدّم وقد كان شاعرا محليا ونائبا عن حزب الأغلبية مدح الرواية الجديدة، الأسلوب، متانة السرد وفي نفس الوقت هاجم الكاتب معتقدا أنّه يقدّم نظرة زائفة عن حاضر البلاد. وعندما فتح باب النقاش تدخّل مباشرة شاعر آخر، هو أيضا نائب ومشهور بماضيه الثوري أكثر من نشاطه الأدبي. رفع يده:

«في رواياتك أتكذب عن وعي أم عن جهل؟».

كانت هناك ابتسامات ووشوشات. تردّد الكاتب ثلاث ثوان. وبعدها عكس الهجوم:

« أنا كاذب بالنزعة»، ردّ صائحا، «أكذب بمرح. الأدب هو الطريقة التي بها يقبل المجتمع كاذبا حقيقيا».

أضاف بعد ذلك، وبطريقة أكثر واقعية، خافضا صوته أنّ الفرق بين الدكتاتوريات والديمقراطيات يكمن في أنّ النظام الأوّل توجد فيه فقط حقيقة واحدة، الحقيقة المفروضة من طرف النظام، أمّا في البلدان الحرّة، فكلّ فرد له الحقّ في الدفاع عن نظرته الشخصيّة للأحداث. الحقيقة، قال، هي خرافة. أمّا فيليكس فقد أبهرته هذه الفكرة.»

«أعتقد أنّ الذي أقوم به هو شكل متطوّر من أشكال الأدب» وأسرّ لي». أنا أيضا أحيك مؤامرات وأختلق شخصيات ولكن عوض أن أتركها سجينة في كتاب أعطيها حياة وأقذف بها في الواقع.»

****

أتعاطف مع قصص العشق المستحيلة. أنا مختصّ في ذلك أو كنت. يزعجني حصار فيليكس البطيء لأنجيلا لوسيا. يرسل لها كل صباح ورودا. وهي كانت تعترض على ذلك مبتسمة ما إن يفتح لها صديقي الباب. نعم كانت ورودا رائعة. جميلة جدا تلك الورود الخزفية. ظهرت لها بذلك التوهّج المبالغ فيه والصناعيّ كالمتحوّل جنسيا أو الأفضل Drag Queens. جميلة جدّا ورود الأوركيد بالرغم من أنّها تفضّل الأقحوان بجماله الجبليّ الخالي من الغرور. نعم شكرته على الورود، ولكن رجته ألا يرسل لها مستقبلا لأنّها لا تعرف ماذا ستفعل بها. فهواء غرفتها في غراند أوتيل أونيفارسو ثقيل وصادم حين يختلط مع ذلك الكمّ من الروائح. تنهّد الأمهق. لو يستطيع يفرش لها سجّادا من بتلات الورود. يتمنّى لو يجهّز لها فرقة من العصافير لحظة تفتّح قوس قزح في السماء لونا لونا. الاعترافات(البوح) بالحبّ بما في ذلك الأكثر سخافة تؤثّر في النساء. أرته بعد ذلك الصور التي التقطتها في الأسابيع

الأخيرة: سحب.

«ألا تظهر وكأنّها خارجة من حلم؟».

ارتجف فيليكس:

«لديّ حلم»، قال، «لديّ أحيانا أحلام غريبة. هذه الليلة حلمت به....» وأشار إليّ. شعرت بالخوف. وركضت مسرعا مذعورا لأختفي في أحد الشقوق قرب السقف. أنجيلا لوسيا صرخت بتلك النبرة الطفولية التي تميّزها:

« وزغة؟! يا لها من روعة».

«ليست أيّة وزغة. إنّها تعيش هنا، في هذا البيت، منذ سنوات عديدة. في الحلم كان لها شكل إنسان، رجل ثقيل الظلّ ووجهه في الحقيقة ليس غريبا عليّ. كنّا نتحدّث في مقهى...»

« الله وهبنا الأحلام لنستطيع النظر إلى الجانب الآخر»، قالت أنجيلا لوسيا، « لنتحدّث مع أهلنا كبار السنّ، لنتحدّث مع الله، وربّما مع الوزغات.»

«ألا تعتقدين ذلك؟».

«أعتقد. نعم. أعتقد في أشياء غريبة يا عزيزي. لو تعرف الأشياء التي أعتقد فيها لنظرت لي كامرأة وحيدة في سيرك كبير من الأشباح. عمّ كنت تتحدّث مع الوزغة؟».

مبــعـد الأرواح

في الشرفة، هناك في الخارج، الكثير من التمائم معلّقة في السقف. كان فيليكس فنتورا قد جلبها خلال رحلاته. أغلبها برازيلية. طيور مطليّة بألوان حيّة. محار، فراشات، أسماك استوائية. مصباح وعصابته المنحرفة. يُحدث النسيم عندما يُحرّكها صوت خرير مياه، وهكذا فإنّني أتذكّر دائما كلّما هبّ النسيم، في هذه الساعة بالذات، والحمد لله أنّه يهبّ دائما، الطبيعة السرية لهذا المنزل: سفينة(ملأى بالأصوات) تشقّ النهر.

حدث شيء غريب أمس. دعا فيليكس أنجيلا لوسيا، وجوزيه بوشمان للعشاء. أنا اختبأت في أعلى الرفوف حيث أستطيع أن أرى كلّ شيء ولا يراني أحد طبعا. وصل جوزيه بوشمان أوّلا؛ دخل مقهقها هو والقميص (نخلات وببغاوات وبحر شديد الزرقة)، عبر الصالة كعاصفة، جاب الرواق ودخل المطبخ. أخرج من خزانة المشروبات قنّينة ويسكي ثمّ فتح الثلاجة وأخرج مكعّبيْ ثلج ووضعهما في كوب كبير. شرب جيّدا وعاد إلى الصالة. حدث كل ذلك وهو، طبعا، يتحدّث صارخا ضاحكا وكأنّه في صباح ذلك اليوم سوف يموت مرجوما. وصلت أنجيلا لوسيا في فستان أخضر صامتة، تحمل في يديها النور الأخير. ظلّت واجمة أمام جوزيه بوشمان:

«أنتما تعرفان بعضكما من قبل؟».

«لا، لا!» أنجيلا أنكرت بصوت لا لون له:»أعتقد لا...» مازال جوزيه بوشمان أقلّ أماناً:

أجهل كثيرا من الناس، قالت، وضحكت من سخريتها نفسها.«لم أكن أبدا مشهورة».

أنجيلا لوسيا لم تبتسم. جوزيه بوشمان نظر إليها قلقا. عاد صوته يصدر تلك النبرة الحلوة لأيّامه الأولى. قال إنّه جاء منذ مدّة ليصوّر أحد المجانين. واحد من أولئك المساكين الذين يأتون يوميا ليتسكّعوا بلا هدف ولا وجهة في شوارع المدينة، لأنّه تبهره ثقة الإنسان الفريدة بنفسه.

في ذلك الصباح الباكر، كان جوزيه بوشمان هناك، مستلقيا وسط الاسفلت ليحصل على صورة جيّدة للمسنّ وهو يخرج من حفرة تصريف المياه التي، على ما يبدو، جعل منها مسكنه وعندما رأى فجأة سيّارة تتّجه نحوه قفز نحو الرصيف ماسكا بكاميرته الكانون لينقذ نفسه من موت رهيب. ولمّا شاهد الفيلم انتبه إلى أنّ الكاميرا، وعند هروبه، لمعت ثلاث مرات. صورتان لم تكونا واضحتين . طين. جزء من الناس. في الصورة الأخيرة يظهر جليّا معدن السيارة القويّ والوجه، غير المهمّ، للمسافر الجالس في الخلف. أظهر الصور. فيليكس ارتعب:

«تبّا! إنّه الرئيس!...»

اهتمّت أنجيلا لوسيا أكثر بجزء من السماء يظهر في الصورة:

«انظرا، سحابة؟ تذكّرني بسحلية».

وافق جوزيه بوشمان. تذكّر بسحلية أو بتمساح، هذا لا يهمّ، فكلّ شخص يرى ما يحلو له أمام رؤية سحابة عابرة. وعندما ظهر فيليكس قادما

من المطبخ ماسكا بيديه قِدرا كبيرة وعميقة من الفخار كانا كلاهما قد بُعثا من جديد. طلب بوشمان جندونغو وليمون. مدح متانة الفطريات. وشيئا فشيئا استعاد القهقهة العالية ولكنة أهل لواندا. ثبّتت أنجيلا لوسيا فيه عينيها المائيتين الرقيقتين:

« قال لي فيليكس إنّك عشت مدّة في المهجر. ما هي البلدان التي زرت؟».

تردّد جوزيه بوشمان لحظة. واستدار إلى صديقي، بطمأنينة، يطلب منه مساعدة. تظاهر فيليكس بعدم الفهم:

«نعم. نعم. لم يحدّثني أبدا أين كان خلال تلك السنوات كلّها...» ضحك بلطف. كان وكأنّه يجرّب، لأول مرّة، طعم الإجرام. تنفّس جوزيه بوشمان بعمق. اتّكأ على الكرسيّ:

«أمضيت العقد الأخير دون عنوان ثابت، أدور حول العالم، أصوّر حروبا. قبل ذلك عشت في ريو دي جانيرو وقبل ذلك في برلين، وما قبل ذلك كلّه في لشبونة. سافرت إلى هناك في الستينات لأدرس الحقوق ولكن لم يعجبني الطقس. كان هناك صمت كبير. فادو وفاطمة وكرة قدم. في الشتاء، وكما يمكن أن يحدث في أيّ مكان في العالم، وعادة يحدث، ينزل من السماء مطر بطحالب ميّتة. الشوراع تظلمّ. الناس يموتون حزنا وحتّى الكلاب تنتحر. هربت. أوّلا، إلى باريس ومن هناك مع صديق إلى برلين. غسلت صحونا في مطعم يونانيّ. عملت موظّف استقبال في ماخور فاخر.

أعطيت دروس برتغالية لألمان. غنيّت في حانات. وعملت موديلا لشباب من طلاب الرسم. ذات يوم أهداني صديق كاميرا كانون أف ١ ومازلت إلى اليوم أستعملها. وهكذا أصبحت مصوّرا فوتوغرافيا. كنت في أفغانستان سنة ألف وتسعمائة واثنين وثمانين من جهة القوات السوفياتية... في سلفادور إلى جانب المتمرّدين... في البيرو في الجانبين... في المالديف أيضا في الجانبين... في إيران خلال الحرب ضدّ العراق... في المكسيك إلى جانب الزباطيين.... صوّرت كثيرا في إسرائيل وفي فلسطين. نعم كثيرا. فهناك لا ينقطع الشغل.»

أنجيلا ابتسمت مرّة أخرى متوتّرة:

«كفى. لا أريد من ذكرياتك أن تجعل هذا المنزل ملوّثا بالدماء.»

عاد فيليكس إلى المطبخ ليعدّ التحلية. المدعوان ظلا متقابلين. لا أحد يتكلّم. الصمت بينهما كان مليئا بالهسهسة، بالظلال، بأشياء تركض بعيدا إلى زمن قديم، مظلمة وعابرة أو ربّما لا. أغلب الظنّ أنهما ظلا صامتين لا غير، لأنّهما لم يجدا شيئا يقولانه وأنا تخيّلت الباقي.

حـــلـم رقـــم ٤

رأيت نفسي أمشي في ممرّ طويل مجهّز بلوحات. الممرّ يتلوّى، يبعد مترا عن الرمال، وكأنّه تائه حين نراه من بعيد بين كثبان عالية ظاهرة هناك في الأمام، مخفيّة في أحيان كثيرة بغطاء نباتيّ من حشائش وشجيرات، وأخرى ظاهرة تماما. كان البحر على يميني ناعما ولامعا، أزرق فيروزيا، كذلك الذي يوجد في المعلّقات الإشهارية أو في الأحلام السعيدة، ومنه ينبثق عطر دافئ بطعم الطحالب والملح. كان هناك رجل يتقدّم نحوي. عرفت مباشرة، وقبل أن أتمعّن في ملامحه، أنّه صديقي فيليكس فنتورا. يدرك أنّ الشمس تزعجه لذا وضع نظّارات سوداء عازلة ولبس بنطالا من الكتّان الخالص وقميصا مفتوحا، أيضا من الكتّان، يرفرف مع الريح كأنّه عَلَم. تغطّي رأسه قبّعة بنما جميلة ولكن لم تستطع كلّ تلك الأناقة أن تحدّ من قوّة حرارة الشمس. «أنا رجل بلا لون»، قال لي، «وكما تعرف الطبيعة تأبى الفراغ».

جلسنا على مقعد كبير ووثير على الممرّ. البحر يصل واثقا إلى أرجلنا. خلع فيليكس فنتورا القبّعة فاهتزّ وجهه العريض. بشرته تلمع، وردية، مغلّفة بالعرق. أشفقت عليه:

«في البلدان الباردة، ذوو البشرة الصافية لا يتعذّبون كثيرا من حرارة الشمس. ربّما ينبغي عليك أن تهاجر إلى سويسرا. هل زرت جينيف؟ أنا أحبّ أن أعيش في جينيف.»

«مشكلتي ليست الشمس»، ردّ، «مشكلتي غياب السواد.»ألم تر أنّ كلّ ما هو جماد يفقد لونه مع الشمس ولكن كلّ ما هو حيّ يكسب لونا؟».

تنقصه الروح، تنقصه الحياة؟! أنكرت بشدّة. لن تجد أبدا أحدا حيّا تماما. يبدو لي وكأنّ فيه، لا أقول حياة، بل حيوات زائدة فيه وفي من حوله.

نظر إلـيّ بانتباه:

«عفوا علـى السؤال، ولكن أيمكننـي أن أعرف اسمك؟». «ليس لـي اسم» أجبت وكنـت صادقا «أنا وزغـة».

«هذا سخيف لا يوجد أحد وزغة!».

«معك حقّ. لا أحد يكون وزغة وأنت تسمّى، إذن، فيليكس فنتورا؟».

ظهر سؤالي وكأنّـه إحراج لـه. اتّكأ علـى المقعد وأبحر بعينيـه فـي أعماق السماء. خشيت أن يقفز فيها. أنا أجهل ذلك المكان. لا أتذكّر أبدا أنّنـي، فـي حياتـي السابقة، كنت ذات مرّة هناك. نباتات صبّار ضخمة بعضها يبلـغ طولها بعض الأمتار، تظهر بين الكثبان خلفنا، وهي أيضا مبهورة بوهج البحر الشفّاف. سرب من طيور النحام انزلق فـي شكل حريق هادئ من السماء الزرقاء، تماما فوق رأسينا، ووقتها فقط، تأكّدت أنّ ذلك كان حلما. عاد فيليكس بطيئا وعيناه رطبتان:

«هل هذا هو الجنون؟».

لم أعرف بماذا أجيبه.

أنا أولالـــيو

أعاد السؤال في الليلة الموالية على أنجيلا لوسيا. قبل ذلك روى لها، طبعا، أنّه حلم بي. كنت أسمع أنجيلا لوسيا تقول أشياء خطيرة عندما تضحك أو العكس عندما تظهر بصورة أكثر جديّة وفي الوقت نفسه تسخر من محاورها. لا أستطيع دائما أن أفهم فيما تفكّر. في تلك الحالة ضحكت أمام عيني صديقي المذعورتين رافعة أكثر في طمأنينتها ولكن بعدها مباشرة صارت جديّة أكثر وسألت:

«والاسم؟ أخيرا هل قال لك الشيخ من يكون؟».

لا أحد يكون اسما! ـ قلت بثقة.

«لا أحد يكون اسما!» أجاب فيليكس.

فاجأ الجواب أنجيلا لوسيا وفيليكس أيضا. رأيته ينظر إلى المرأة وكأنّه ينظر إلى هاوية. كانت ضحكتها حلوة. أرخت يدها اليمنى على كتف الأمهق الأيسر. أسرّت له في أذنه وهوِ ارتاح.

«لا». أكّد لها بعد أن أخذ نفسا. «لا أعرف من هو، وبما أنّني صاحب الحلم، يمكنني أن أسمّيه ما أشاء، أليس كذلك؟ سأسمّيه أولاليو لأنّه اسم مشتق من فعل سهل».

أولاليو؟! أعجبني. سأكون، إذن، أولاليو.

مطر على الطفولة

تمطر. قطرات ماء كبيرة مدفوعة بالرياح القويّة تصطدم بالزجاج. فيليكس جالس أمام العاصفة، يتلذّذ ببطء بعصير فواكه. كان هذا عشاؤه خلال الليالي الأخيرة. يعدّ بنفسه البابايا. يفرمهما بشوكة، ويضيف إليها بعد ذلك حبّتي ماراكوجا، موزة، زبيب، مكسّرات صنوبر، ملعقة موسلي ـ ماركة أنكليزية ـ وقطرة عسل.

« هل كلّمته عن الجراد؟».

نعم. قال لي:

«دائما كلّما تمطر أتذكّر الجراد. ليس هنا ولا في لواندا، طبعا، هنا لم أر أبدا شيئا مشابها. أبي، المسنّ فاوشتو بنديتو، ورث عن جدّتي لأمّي مزرعة في غابيلا. كنّا نذهب إلى هناك لنقضي العطل. بالنسبة إليّ كان ذلك وكأنّي أزور الجنّة. كنت أقضي النهار كلّه ألعب مع أطفال الخدم، زائد صبيّ أو آخر أبيض، من ذلك المكان نفسه، صبية يتكلّمون كمبندو. كنّا نقوم بمحاكاة حرب بين الهنود الحمر والكابويات مستعملين رماحا وأقواسا. كنّا نصنعها بأنفسنا ونستعمل أيضا بنادق ضغط هوائيّ. أنا عندي واحدة والصبيّ الآخر عنده واحدة. كنّا نشحنها بتفّاح الهند. تفّاح الهند هذا، صعب أن تعرفه، فهي فاكهة صغيرة حمراء تقريبا بحجم رصاصة. صالحة لرصاصات ممتازة لأنّها عندما تصيب الهدف تتحدّى، بلوففف! فتلطّخ لباس الضحية وكأنّه رُمِي بدم. عندما أرى الأمطار، هكذا، أتذكّر غابيلا. تحيط خراطيم المياه بالطريق، بالضبط عند مخرج كيبالا. والأوملات! لم آكل ألذّ منها. كانت تقدّم مع عرق ماطابيشو في فندق كيلابا. كانت طفولتي مليئة بنكهات طيّبة. طفولتي رائحتها طيّبة. أتذكّر الجراد. نعم. أتذكّر تلك الأمسيات عندما تمطر جرادا. يعمّ الظلام الأفق. يسقط الجراد فجأة على

العشب. بدءا، واحد هنا وآخر هناك فتلتهمها العصافير مباشرة. الظلام يتقدّم، يغطّي كلّ شيء وفي اللحظة الموالية يتحوّل المشهد إلى وضع مقلق، إلى ضجّة غضب وإثارة، ونحن نركض نحو البيت باحثين عن ملجأ عندما تكون الأشجار قد فقدت أوراقها، واختفت الأعشاب في دقائق معدودة بعد أن يلتهمها ذلك النوع من النار الحيّة. في الغد، كلّ ما كان أخضر يختفي. حدّث فاوشتو بنديتو أنّه رأى الأعشاب تختفي هكذا ملتهمة من قبل الجراد. شاحنة خضراء. قد تكون مبالغة.»

أحبّ كثيرا حديث فيليكس عن طفولته كما لو أنّي عشتها حقّا. يغمض عينيه. أبتسم:

«أغمض عيني فأعود لأرى الجراد يسقط من السماء. والنمل. النمل المحارب، هل تعرفه؟ تنزل جحافل من النمل ليلا، من باب ما مفتوح على الجحيم ثمّ تتضاعف بالآلاف، بالملايين، حسب حجم قتلنا لها. أذكر أنّ ذلك كان يثير سعالي، سعال كثير، أسعل مختنقا وعيناي تحترقان في قلب دخان المعركة. أبي، فاوشتو بنديتو، بالبيجاما شعره أشعث مجعّد. قدماه العاريتان غارقتين في بركة مياه، يقاتل ذلك البحر من النمل بقنبلة دي دي تي. يصيح فاوشتو في الخدم، يعطيهم التعاليم بصوت ينتشر بين الدخان. وأنا أضحك بذهول طفل. كنت أنام حالما بالنمل وعندما أستيقظ أجدني مازالت هناك في قلب الدخان، ذلك الدخان اللاذع. ملايين من الآلات الكسّارة الصغيرة تجري بغضبها الصاخب وجوعها الأزليّ. أنام حالما وهي تدخل في أحلامي. أراها تنتشر على الجدارن فتهاجم الدجاجات في أكواخها، والحمام في أعشاشها. تعضّ الكلاب سيقانها. تدور في حالة من الغضب، تدور حول نفسها. تحاول بأسنانها انتزاع النمل الذي علق بين أصابعها، تدور، تنبح، تعضّ لحمها. تنتزع النمل بأظافرها. كانت الباحة مليئة بالدماء. ورائحة الدمّ تصيب الكلاب أكثر بالجنون. وتصيب النمل. فاليا إشبيرنيا، وفي ذلك الوقت، لم تكن مسنّة

كثيرا، كانت تصيح وتنادي « افعلْ أيّ شيء، أيها السيد، الحيوانات تعاني». وأتذكّر أبي يشحن بندقية الصيد، في حين هي أخذتني إلى الغرفة، كي لا أشاهد ذلك المنظر. أعانق بيلا أشيبرنسا وأخفي وجهي بين نهديها، ولكن ذلك لم يغيّر الكثير. الآن أغمض عينيّ وأرى. أسمع كلّ شيء، هل تصدّق؟ إلى اليوم أبكي موت كلابي. ليس مناسبا أن أقول هذا. لا أدري إن كنت تتفهّم شعوري، ولكنّني أبكي أكثر على كلابي من بكائي على أبي المسكين. كنّا حين نستيقظ، ننفض شعرنا وننفض الملابس فيسقط النمل ميتا أو على وشك الموت، ولكنّه مازال يعضّ ويمضغ الهواء بفراجيره الحديدية. ومن حسن الحظ أنّها أمطرت. الأمطار تتقدّم عبر سماء منيرة ونحن نجري ونقفز تحت قطراتها الكبيرة، الصافية، نشرب رائحة الأرض المبلّلة. ومع الأمطار الأولى يأتي أيضا النمل الأبيض والفراشات التي تبدو كائنات غير شرّيرة. قديما، كلّ قصص الأطفال تنتهي بالعبارة نفسها» وظلا سعيدين إلى الأبد» وذلك بعد أن يتزوّج الأمير بالأميرة وينجبان كثيرا من الأطفال. في الحياة، طبعا، لا أحد يصدّق ذلك. الأميرات يتزوّجن بالحرّاس الشخصيّين ويتزوّجن المهرّجين وتستمرّ الحياة. ويظلّ الاثنان تعيسين حتّى الفراق. وبعد سنوات، مثلنا جميعا، يموتان. نكون سعداء، فعلا سعداء، إن كانت سعادة أبديّة ولكن الأطفال فقط يسكنون ذلك الزمن الذي فيه كل الأشياء تعيش إلى الأبد. أنا كنت سعيدا إلى الأبد في طفولتي، هناك في غابيلا، خلال العطل الكبيرة، عندما كنت أحاول أن أبني كوخا في جذوع أشجار السنط. كنت سعيدا إلى الأبد على ضفّتي غدير أو هو تيّار ماء متواضع جدا لدرجة أنه تخلّى عن اسمه الفاخر، بالرغم من اعتزازه بأنّنا نعتبره أكثر من غدير. لقد كان نهرا. كنّا نجري بين حقول الذرة والمنديوكا. نذهب إلى هناك لصيد الضفادع الصغيرة. تعبر بواخر بخارية فجأة، وفي المساء نشاهد الغسّالات يسبحن. كنت سعيدا مع كلبي، كابري، كنّا سعيدين كثيرا نجري خلف الحمام والأرانب. في الأمسيات الطويلة نلعب الغميضة بين الأعشاب الطويلة. كنت سعيدا على ظهر سفينة الأمير

المثالي، في رحلة بين لواندا ولشبونة، فألقي في البحر رسائل ساذجة «من يجد هذه القنينة رجاء أن يكاتبني». لم يكتب لي أحد إطلاقا. في دروس التعليم المسيحي كان هناك خوريّا مسنّا، صوته خافت ونظره ضعيف، حاول دون جدوى أن يفسّر لي فيما يتمثّل الخلود. أنا كنت أظنّه اسما آخر للعطل الكبيرة. يتحدّث الخوري عن ملائكة وأنا أرى دجاجا، وحتى اليوم مازلت أعرف الدجاج أكثر من الملائكة. كان يحدّثنا عن النعيم وأنا أرى دجاجا تحت الشمس يحفر أعشاشا في التراب ويحرّك عيونه البلورية. لا أستطيع أن أتخيّل الاله الطيب مستلق بكسل، في سرير ناعم من السحاب، دون أن يحيط به فيلق من الدجاج اللّين. فأنا لم أعرف في حياتي دجاجة سيّئة وأنت هل عرفت؟ الدجاج مثل النمل الأبيض، مثل الفراشات، محصّن ضدّ الشرّ.»

تصعّد الأمطار من قوّتها. نادرا ما تمطر هكذا في لواندا. يمسح فيليكس فنتورا وجهه بمنديل. مازال إلى الآن يستعمل مناديل القطن الضخمة، من الطراز القديم، والاسم مطرّز في طرفها. أحسد طفولته. قد تكون مزوّرة. ورغم ذلك أحسده.

بين الحيـــاة والكتـــب

في الصغر، وقبل أن أتعلّم القراءة، كنت أقضي ساعات في مكتبة بيتنا أتصفّح الموسوعات الضخمة المصوّرة، بينما كان أبي يؤلّف أبياتا مضنية ليمزّقها بعد ذلك عن قصد. وبعد ذلك، في المدرسة كنت أهرب إلى المكتبات لأتفادى اللعب الخشن مع أندادي. كنت صبيا خجولا، وديعا، وهدفا سهلا لسخرية الآخرين. كبرت - حتى أنّي كبرت أكثر من المعتاد - ونما جسمي ولكن مازلت منكفئا ومتراجعا عن المغامرات. اشتغلت لبعض السنوات كتبيا وأعتقد أنّي كنت سعيدا في تلك الفترة. وكنت سعيدا بعدها، بما في ذلك الآن، في هذا الجسم الصغير الذي فرض عليّ عندما أقرأ رواية أو أخرى سخيفة عن سعادة الآخرين. في الأدب الكبير نادرة هي قصص الحبّ الخالدة. نعم، مازلت أقرأ الآن. أمشي على التلال عند الغسق. أتسلّى ليلا بالكتب التي يتركها فيليكيس مفتوحة منسيّة على الأباجور. أفتقد ولا أعرف بالضبط لماذا ألف ليلة وليلة في النسخة الأنكليزية لريتشارد بورتون. كان عمري وقتها ثمان أو تسع سنوات حين قرأتها لأوّل مرّة خفية عن أبي لأنّها كانت كتابا فاحشا في تلك الفترة. لا أستطيع الرجوع إلى ألف ليلة وليلة ولكن في المقابل ها إنّني أكتشف كتّابا جددا. تعجبني مثلا في كتابات جون ماكسويل كويتزي القوّة والدقّة واليأس من الغفران. فاجأني أنّ السويديين استطاعوا اختيار عمل رائع جدّا لجائزة نوبل.

أتذكّر حديقة منزلية ضيّقة، بئرا، سلحفاة نائمة في الوحل. ضجيج كثير من الناس خلف القضبان. أتذكّر أيضا بيوتا واطئة غارقة في نور الغروب الناعم (مثل الرمل). أمّي كانت دائما إلى جانبي. كانت امرأة هشّة وشرسة

علّمتني أن أخشى الدنيا وأخطارها اللامحدودة.

«الواقع مؤلم وناقص»، كانت تقول لي، «هذه هي طبيعتها ولذلك نميّزها عن الأحلام. فعندما يبدو لنا شيء جميل جدّا نظنّ أنّه ليس سوى مجرّد حلم. ولذا يعسر علينا التحقّق من أنّنا لسنا نحلم. إذا تأمّلنا فنحن إذن لسنا نحلم. الحقيقة تجرح وإن بدت لنا للحظات كحلم. في الكتب يوجد كل شيء، وأحيانا كثيرة، بألوان أكثر من أصلية، من دون الألم الحقيقي الذي تسببه الأشياء التي وجدت حقّا. بين الحياة والكتب، اختر الكتب، يا بنيّ.»

أمّي! وبداية من الآن سأقول فقط، الأمّ.

تخيّلت شابّا يقود درّاجة ناريّة في طريق فرعي. الريح تضرب وجهه. يغمض الشابّ عينيه ويفتح ذراعيه كما في الأفلام. يشعر أنّه حيّ وفي تماه كامل مع الكون. لا يرى الشاحنة تقطع المنعطف. يموت سعيدا. السعادة، تقريبا، هي دائما انعدام المسؤولية. نحن سعداء خلال لحظات قصيرة، حين نغمض أعيننا.

العالم الصغير

وضع جوزيه بوشمان الصور على طاولة الصالة الكبيرة. نسخ في شكل أ٤، من ورق لامع، أبيض وأسود. يظهر فيها، كلّها تقريبا، الرجل نفسه؛ مسنّ طويل، نحيل، شعره طويل أبيض يتدلّى على صدره بخصلات سميكة ضائعة بين أسلاك اللحية الكثّة. هكذا يظهر في الصور يلبس قميصا داكنا وعليه يمكن مشاهدة منجل ومطرقة على مستوى الصدر. ولكن يظهر برأس عال وبعينين تلمعان غضبا. يذكّرني بأمير قديم سقط في الذلّ.

«اتّبعته في كلّ مكان طوال الأسابيع الأخيرة من الصباح إلى الليل. هل تريد أن ترى؟. سأريك المدينة من وجهة نظر كلب مطيع.»

- المسنّ، مديرا ظهره، يتقدّم على طول الشوارع المتقطّعة.
- مبان مهجورة مدمّرة. جدرانها مخترقة بالرصاص. عظام نحيلة منتشرة. لافتة على أحد الجدران تعلن عن حفل لخوليو إغليسياس.
- صبية يلعبون الكرة بين مبان عالية، نحيلون جدا، شفافين تقريبا، منغمسون في اللعب في الغبار وكأنّهم راقصين على ركح. المسنّ ينظر جالسا على حجرة. يبتسم.
- المسنّ ينام تحت هيكل لدبّابة حرب أكله الصدأ.
- المسنّ يتبوّل على نصب الرئيس.
- المسنّ تبتلعه الأرض.
- المسنّ يخرج من حفرة تصريف المياه، كأنّه إله عات

ومتمرّد. شعره الثائر تنيره شمس الصباح الناعمة.

« جمعت مادّة جيّدة لتقرير صحفي وقد بعته لصحيفة أمريكية. سأرحل غدا إلى نيويورك. سأبقى هناك أسبوعا أو أسبوعين أو ربّما أكثر. هل تعرف ماذا أنوي أن أفعل؟».

لم ينتظر فيليكس فنتورا الجواب. مال برأسه:

« هذا عبث! هل عند إدراك بأنّ هذا عبث، أليس كذلك؟».

ضحك جوزيه بوشمان. أطلق قهقهة صادقة. ربّما كان يمزح:

«منذ زمن طويل، في برلين، فاجأتني مكالمة من صديق، رفيق طفولة، من هناك من عزيزتي شبيا. قال لي إنّه ترك لوبانغو منذ يومين وسيسافر بالدراجة النارية إلى لواندا ومن لواندا سيطير إلى لشبونة، ومن لشبونة إلى ألمانيا. كان قد قرّر الهروب من الحرب. كان من المفترض أن ينتظره ابن عمّ له في المطار ولكن لم يجد أحدا في استقباله. فبدأ يبحث عن بيت ابن العمّ. خرج من المطار وضاع مذعورا. كان لا يعرف كلمة واحدة بالأنكليزية، فما بالك بالألمانية، ولم يزر أبدا من قبل مدينة كبيرة. حاولت تهدئته.

من أين تتّصل؟ سألته، من كابينة هاتف، أجاب، وجدت رقمك في مفكّرتي فقرّرت الاتصال بك. ـ حسنا فعلت، قلت موافقا، لا تخرج من هناك. انظر من حولك وقل لي إن كنت ترى شيئا ما يبدو لك غريبا ويثير الانتباه حتى أستطيع مساعدتك ـ شيئا غريبا؟ طيّب. في الجانب الآخر من الشارع توجد آلة بها ضوء مرّة يضيء، ومرّة ينطفئ مغيّرا من لونه؛ أخضر، أحمر، أخضر مع رسم لرجل يمشي.

روى النكتة مقلّدا صوت صديقه، تلك اللكنة العريضة، قلق المسكين

وهو ماسك بالسمّاعة. ضحك من جديد، وهذه المرّة قهقه حتّى تناثرت الدموع من عينيه. طلب من فيليكس كأس ماء. هدأ بعد أن شرب:

«نعم، عندما كبرت عرفت أنّ نيويورك مدينة كبيرة جدّا ولكن، بما أنّني كنت قادرا على العثور في برلين على أضواء مرور وأمامها كابينة هاتف فيها سجين...هذا هو الاسم الذي يجب إطلاقه على أصيلي شبيا هل تعرف؟.... فإذا كنت قادرا على العثور على كابينة هاتف في برلين وبداخلها سجين ينتظرني فيمكنني أيضا أن أعثر في نيويورك على مصمّمة اسمها إيفا ميلر؛ أمّي. يا الهي! إنّها أمّي، لا بدّ أن أجدها خلال خمسة عشر يوما.

****

«صديقي الطيب،

أرجو أن تصلك رسالتي وأنت بصحّة جيدة. أعرف أنها ليست، بالضبط، رسالة هذه التي أكتبها الآن وإنّما هي رسالة الكترونية.لا أحد يكتب رسائل اليوم. أنا في الحقيقة أشتاق إلى ذلك الزمن الذي كان فيه الناس يتبادلون الرسائل، رسائل حقيقية من ورق جيّد حيث يمكن أن نضيف إليها قطرة عطر، أو ورود جافّة، ريشا ملوّنا، خصلة شعر. يعذبّني حنين طفوليّ إلى ذلك الزمن الذي كان فيه ساعي البريد يأتينا بالرسائل إلى البيت وتلك الفرحة أو الذعر التي بها نفتحها ونقرأها، وتلك العناية الفائقة التي نعطيها للعبارات ونحن نردّ. نقيسها بالميزان، نقيّم النور والنار التي تحتويها، نشعر برائحتها لأنّنا نعرف أنّها، بعد ذلك، سوف تُحتسى وتُدرس وتُشمّ وتُتذوّق، وأنّ بعضها تستطيع، ربّما، الهروب من سطوة الزمن لتعاد قراءتها بعد سنوات. لا أحتمل قلّة الرسميات للرسائل الالكترونية. أواجهها دائما برعب، رعب جسدي وميتافيزيقي وأخلاقي. تلك «أوي» التي دخلتنا من البرازيل؛ كيف يمكن أن نتعامل بمحمل الجدّ مع شخص يخاطبنا هكذا؟ الرحّالة الأوروبيون طوال القرن التاسع عشر قطعوا

أدغال أفريقيا وأشاروا باستمرار، بأسلوب ساخر، إلى التحيّات المعقّدة المتبادلة للأدلاء السياحيين المحلّيين عندما يتلاقون خلال تلك الأيّام الطويلة، عند ظلّ ما، مع أقارب أو معارف. يشاهد الرجل الأبيض ذلك بقلّة صبر إذ تمرّ دقائق تليها أخرى طويلة من الابتسامات والتدخّلات والكلام فيقاطع الدليل:

«إذن، ماذا يقول السادة. هل رأوا ليفنغستون؟».

«لا. لم يقولوا شيئا، سيدي»، ردّ الآخر، «فقط تبادلنا التحيّات».

أنا أنتظر رسالة من ذلك الزمن الأصيل. لنفترض الآن أنّ هذه رسالة كان ساعي البريد قد سلّمها لك الآن. لا بدّ من شمّها ربّما هربا من الأشياء التي يستنشقها الناس اليوم ويتنفّسونها في هذه التفّاحة الكبيرة المتعفّنة. السماء منخفضة وداكنة. أرجو، بهذا الخصوص، أن تعبر سماء لواند سحب مماثلة ويأتي موسم دفء ليستمرّ دائما بما يلائم بشرتك الحسّاسة، وأن تكون أعمالك من حسن إلى أحسن. أنا أثق في ذلك وفي كلّ ما يليق بماضي جميل عشناه جيّدا كلّنا وخاصّة أولئك الذين من أجل هذا الوطن الحزين أخرجونا من الحكم ليحكموا هم.

أفكّر في الجميلة أنجيلا لوسيا. (أنا أعتقد أنّها جميلة) عندما أنتصر دون إجهاد في التنفّس على الاضطراب المقلق للشوارع. ربّما معها الحقّ ومن الأفضل أن نقدّم شهادات لا عن الظلمات، مثلما فعلت أنا، ولكن عن النور. لو كنت مع صديقتنا لقلت لها إنّني، على الأقل، استطعت أن أزرع في روحي بعضا من الشكّ، إنّني رفعت عينيّ إلى السماء في الأيام الأخيرة أكثر مما فعلت خلال حياتي كلّها. رفع العيون يحجب رؤية الطين فلا نرى الكائنات الصغيرة التي تقاتل في الوحل. هل يبدو لك، عزيزي فيليكس، أنّ الأهمّ هو تقديم شهادة عن الجمال أو إدانة الرعب؟.

ربّما هو الشعور بالملل من فلسفتي المتهوّرة. أتخيّل أنّها لو تقرأني إلى هذا الحدّ لا بدّ أنّها ستشعر بتماه مع المستغلين الأوروبيين الذين أشرت لهم سابقا:

«في النهاية، ماذا كان يريد ذلك الرجل، هل وجد ليفينغستون أم لا ؟».

لم ألتق به. بدأت أبحث في قوائم الأرقام الهاتفية فاكتشفت ستة أسماء لميلر، وأيضا، اسمين لإيفا ولكن ولا واحدة منهنّ عاشت في أنغولا. قرّرت بعد ذلك أن أنشر بلاغا بالبرتغالية في أكثر الجرائد توزيعا. لم أحصل على أيّ جواب وبعدها، نعم، وجدت لها مسارا. لا أدري إن كنت تعرف نظرية العالم الصغير، وتسمّى أيضا الدرجات التسع للتفرقة. ففي سنة ألف وتسعمائة وستّ وستين كان عالم الاجتماع الأمريكي، ستندلي ملغرام، من جامعة هرفارد، قد أطلق تحدياً مثيرا لثلاثمائة شخص من متساكني كنساس ونبراسكا. انتظر نجاح هؤلاء الأشخاص باستعمال معلومات مستقاة فقط من أصدقاء ومعارف عبر رسائل(هذا حصل في الزمن الذي كانت توجد فيه رسائل)، فاتّصل بشخصين في بوسطن، من هؤلاء الذين لا يعرفون سوى الاسم والمهنة. وافق ستّون شخصا على المشاركة. ثلاثة فقط نجحوا. وخلال تحليل النتائج أدرك ملغرام أن معدّل ستّة مراسلات فقط كانت بين المرسل والمرسل إليه. فإذا كانت النظرية صحيحة أجدني الآن على بعد شخصين فقط لأجد أمّي. أحمل معي دائما قصاصة من مجلة « فوغ»، من تلك النسخة الأمريكية التي أعطيتني إيّاها أنت وبها لوحة مائية لإيفا ميلر. التقرير الصحفي كان من إمضاء صحفية تسمّى ماريا دونكام. تركت المجلّة منذ سنوات ولكن رئيس التحرير مازال يذكرها إلى حدّ الآن. وبعد بحث طويل استطعت أن أكتشف رقم هاتفها في ميامي حيث كانت تقيم ماريا عندما كانت تعمل لحساب «فوغ». ردّت عليّ، من ذلك الرقم، ابنة أخيها. قالت لي إنّ خالتها لا تعيش هناك وإنّها عادت بعد موت زوجها إلى مسقط رأسها في نيويورك. وأعطتني العنوان. إنّه يقع، ويا لسخرية الصدف، على بعد شارع من

الفندق الذي نزلت فيه. ذهبت لزيارتها أمس. ماريا دونكان، امرأة مسنّة، مجرّدة من الملامح. شعرها أحمر وصوتها جهوري وواثق وكأنّه سرق من أحد أكثر شبابا منها. أظنّ أنّ الوحدة قاسية عليها. هذا الشرّ الذي يعاني منه كبار السنّ وهو منتشر بكثرة في المدن الكبرى. استقبلتني باهتمام وعندما علمت بسبب مجيئي تحفّزت أكثر. ابن يبحث عن أمّه يؤثّر في أيّ قلب أنثوي.»إيفا ميلر»، لا، هذا الاسم لا يذكّرها بشيء. أظهرت لها قصاصة « فوغ». ذهبت لتجلب صندوق صور قديمة، مجلات، اسطوانات، ثمّ بقينا نفتّش معا في كلّ ذلك ساعات وكأنّنا طفلين على سرير الجدّة. كان بحثا مهمّا فقد وجدنا صورة لها مع أمّي. وأكثر أهميّة من ذلك وجدت رسالة كانت إيفا قد كتبتها لها وتشكرها على إرسال المجلّة. على الظرف هناك عنوان في مدينة كابو قبل أن تستقرّ في نيويورك. أخشى لذلك، ولكي أجدها هنا أو في أيّ مكان تكون، أن أضطرّ لتقفّي مسيرها. سأقوم غدا برحلة إلى جوهانسبورغ ثم أعود إلى لواندا؛ خطوة صغيرة بين جوهانسبورغ وكابو. يمكن أن تكون خطوة مهمّة جدّا في حياتي.
تمنّ لي حظّا سعيدا وتقبّل عناقا حارا من صديق مخلص،

جوزيه بوشمان»

العـــــقـرب

أنام حسب العادة أو الطبيعة الجينية النهار كلّه لأنّ الضوء يزعجني. ويحدث أحيانا أن يوقظني شيء ما، ضجيج، شعاع شمس، فأكون مجبرا على تحمّل فظاعات النهار. أجري على الجدران حتى أجد شقًا عميقا أو فجوة رطبة وغائرة حيث أستطيع النوم من جديد. لا أدري لماذا استيقظت هذا الصباح. أعتقد أنّني حلمت بشيء قاس (لا أستحضر الوجوه وإنّما الأحاسيس فقط). ربّما حلمت بأبي وفي اللحظة التي فتحت فيها عينيّ رأيت عقربا. كان على بعد سنتيمترات منّي. لا يتحرّك. كان منكمشا في دائرة من الكره كأنّه محارب قروسطي في قلب معركة وفجأة اتّجه نحوي. قفزت إلى الوراء وصعدت الجدار في لمح البصر حتى أدركت السقف. سمعت بكلّ صفاء ومازلت أسمع تلك القوّة الحديدية وهي تقع على الأرضية الخشبية.

أذكر عبارة قالها أبي في ليلة احتفال ـ بفرحة وهميّة على ما أعتقد ـ بموت عدوّ:

«كان شرّيرا وأنا تجاهلته. لم يكن يعرف ما معنى الشرّ أو بالأحرى: كان شريرا تماما.»

كان ذلك ما شعرت به في تلك اللحظة بالذات عندما فتحت عينيّ ورأيت العقرب.

الــــوزيــــر

لم أستطع النوم من جديد بعد حادثة العقرب وهكذا استطعت أن أحضر دخول الوزير. كان رجلا قصيرا، بدينا، ليس مرتاحا كثيرا في جسده. قال إنّه وقع تنزيل رتبته منذ فترة قصيرة، ولم يتعوّد بعد على الوضعية الجديدة. كان يلبس بدلة داكنة بخطوط بيضاء، ليست ملائمة له بل تعذبّه. ألقى نفسا عميقا وهو يقعُ على كرسيّ السعف الكبير. مسح بأصابعه العرق المتصبّب من جبينه وقبل أن يقدّم له فيليكس شيئا يشربه صاح مخاطبا فاليا إشبيرنسا:

«سيدتي، بيرة باردة جدّا».

صديقي عقد حاجبيه ولكنّه تمالك نفسه. جلبت فاليا اشبيرنسا البيرة. الشمس في الخارج تذيب الاسفلت.

«أليس عندك مكيّف؟».

قال ذلك برعب. شرب البيرة بجرعات طويلة، بشراهة، وطلب أخرى. اقترح فيليكس عليه أن يجلس مرتاحا. ألا تريد أن تخلع البدلة؟ قبِل الوزير. كان القميص بنصف كمٍ فبدا بدينا أكثر، وكأنّ إلها جالسا في رأسه يراقب حركاته.

«هل عندك مشكلة ضدّ المكيّف؟» ضحك «هل يسيء إلى مبادئك؟».

أثارت صديقي تصاعد عبارات الألفة من طرف الوزير. سعل وكأنّه ينبح وأخذ يبحث عن الملفّ الذي أعدّه. فتحه ببطء فوق طاولة من خشب الماهوغني، بطريقة مسرحية، بطقوس كنت قد حضرتها مرّات كثيرة. كان لها دائما نتيجة. قطع الوزير التنفّس. بدا عليه القلق عندما صرّح له صديقي بشجرة العائلة:

«هذا والد جدّك من الأب. اسمه ألشندر توريش دوس سانتوس كوريا دي

صا إي بينيفيدش، منحدر مباشرة من سلالة كوريا دي صا إي بينيفيدش. ذلك الرجل اللامع الذي حرّر لواندا من الهيمنة الهولندية سنة ١٦٤٨...»

«سالفادور كوريا؟! الرجلِ الذي أعطى اسمه إلى المعهد؟».

«هو عينه».

«ظننت أنّه توغا(برتغاليّ)، أو أحد السياسيين من هناك، من المتروبول، أو مستعمر ما، فلماذا إذن غيّروا اسم المعهد إلى موطو ياكافيلا؟».

«لأنّهم كانوا يريدون بطلا أنغوليا، حسب ظنّي، ففي تلك الفترة كنّا نحتاج إلى أبطال كحاجة الفم إلى الخبز. إذا أردت يمكن أن أتدبّر لك أيضا جدّا آخر. أستطيع الحصول على وثائق تثبت أنّك تنحدر من سلالة موطو ياكافيلا، أو نغولا كيلوونغ، وحتى الملكة جينغا أيضا. هل تفضّل واحدا من هؤلاء؟».

« لا. لا. أبقى مع البرازيلي. الرجل كان غنيّا؟».

«كان غنيّا جدّا. كان ابن عمّ استاسيو دي صا، مؤسّس ريو دي جانيرو المسكين، الذي تعرّض لقدر مأساوي فالهنود الحمر التامويش أصابوه بسهم سامّ في وجهه. ولكن، في النهاية، والذي يهمّك معرفته، هو أنّه خلال السنوات التي أقام فيها هنا تعرّف على سيّدة أنغولية تدعى اشتيفانيا، ابنة أحد أشهر تجّار العبيد في تلك الفترة وهو فيليب بيريرا توروش دوس سانتوس. أغرم بها ومن ذلك العشق... عشق محرّم، وها إنّي من البداية أوضّح لك ذلك، لأنّ الحاكم كان رجلا متزوّجا... من ذلك الحبّ أنجب ثلاثة أطفال. عندي هنا شجرة العائلة، انظر، إنّها تحفة فنية.»

كان الوزير مذهولا:

«رائع!»

كان غاضبا:

«تبّا! من كان صاحب الفكرة الغبيّة في تغيير اسم المعهد؟! رجل طرد المستعمرين الهولنديين، مقاتل عالمي من بلد شقيق، من أصول إفريقية، مؤسّس إحدى أهمّ العائلات في البلاد، بلادي. لا! هذا لا يجب أن يستمرّ هكذا. لا بدّ من إعادة العدل. أريد أن يستعيد المعهد اسم سلفادور كوريا وسأسعى بما أوتيت من جهد من أجل ذلك. سآمر بإنجاز نصب لجدّي في مدخل المؤسّسة. نصب كبير من النحاس على قاعدة من المرمر الأبيض، هل تعتقد أنّ فكرة المرمر جيّدة؟ سلفادور كوريا يمتطي حصانا، يدوس باحتقار المستعمرين الهولنديين. السيف مهمّ. سأشتري سيفا أصليّا، هل كان يستعمل سيفا أم لا؟ نعم. كان سيفا أصليا أكبر من سيف أفونسو هنريكش. وأنت سوف تكتب كلمات الشاهدة. شيئا من قبيل. سافادور كوريا محرّر أنغولا مع العرفان له بالجميل من الوطن ومخابز اتّحاد ماريمبا، هكذا أو غيره، لا يهمّ ولكن باحترام، تبّا! باحترام! فكّر في ذلك وبعدها قل لي شيئا ما. انظر، جلبت لك حلوى بيض أفيرو. هل تحبّ البيض الحلو؟ أحسن بيض أفيرو الحلو، وللتنويه من صنع كاكواكو وهي أحسن حلوى بيض في إفريقيا وما جاورها بل في العالم كلّه، وهي أفضل حتّى من الأصلية. أعدّها معلّمي الحلواني وهو من إليافو. هل تعرف إليافو؟ أجل يجب أن تعرفها. أنتم تقضون يومين في لشبونة وتعتقدون أنكم تعرفون البرتغال لكن جرّب، جرّب وبعدها قل لي إن كان معي حقّ أم لا. إذن، أنا أنحدر من سلفادور كوريا! تبّا! والآن فقط أكتشف ذلك. جيّد جدّا. زوجتي ستكون سعيدة.»

ثمــرة السنوات الصعبة

وصلت أنجيلا لوسيا دقائق قليلة بعد مغادرة الوزير. لا يبدو أنّ الحرّ قد كبّدها أدنى ضرر يذكر. دخلت مستحمّة، رشيقة، ضفائرها تشعّ نورا، بريق رمّاني يكتسح بشرتها السمراء. في النهاية كانت احتفالا:

«هل من إزعاج؟».

لا يظهر في السؤال وفي الابتسامة التي رافقته أيّة علامة على أنّ كلمة إزعاج كانت في محلّها. أكاد أقول إنّه تحدّ. صديقي قبّلها على خدّها خائفا. قبلة واحدة فقط.

«لا تزعجيني أبدا...»

المرأة عانقته.

«أنت عزيز جدّا!»

مساء، باح فيليكس:

«يوما ما سأفقد رأسي وأقبّلها على شفتيها.» أريد أن أمسكها من ذراعيها وألصقها إلى الجدار، ليس كما أفعل مع تلك الفتيات اللاتي آتي بهنّ إلى هنا، إلى المنزل من حين لآخر. ذلك سيكون صعبا. هشاشة أنجيلا لوسيا ـ وأقسم ـ هي حيلة نقيّة. هذا المساء قلبت الأوراق وتحوّلت في رمشة عين من حمامة إلى ثعبان:

«جدّك، الذي هناك، في الإطار، يشبه كثيرا فريديريك دوغلاس؟».

نظر فيليكس إليها مهزوما:

«آه! هل تعرّفت عليه؟ ماذا تريدين؟ أتسمّين هذا تشويه سمعة مهنية؟ وظيفتي حبك القصص. أروي حكايات كثيرة طوال اليوم وبحيويّة إلى درجة أنّني لمرّات عديدة أصل إلى المنزل تائها في تخيّلاتي الشخصيّة. نعم، إنّه فريديريك دغولاس، اشتريت هذه الصورة من معرض متجوّل في نيويورك ولكن الذي جلب حقّا الكرسي الكبير الذي تجلسين عليه الآن إلى هنا كان والد جدّي أو للتدقيق والد جدّ أبي بالتبنّي. باستثناء الصورة، فإنّ القصّة التي رويتها لك حقيقية خاصّة النهاية على الأقلّ مادمت أتذكّر. أعرف أنّه أحيانا عندي ذكريات كاذبة ـ كلّنا عندنا، أليس كذلك؟ علماء النفس درسوا هذا ـ ولكن أعتقد أن تلك الذكرى حقيقية.»

«أصدّق. ولكن، في المقابل، صديقك جوزيه بوشمان هو مزوّر تماما. صحيح؟ أنت اختلقته...»

نفى فيليكس بشدّة. لا. تبّا! لو قال له ذلك الكلام شخص آخر لكان قد شعر حتما بالإساءة، بإساءة كبيرة ولكن، لو فكّرنا جيدا، فذلك التهجّم يمكن أن يؤخذ على أنّه مديح. طبعا، الواقع وحده هو الذي يكون قادرا على اختلاق شخصية في حجم جوزيه بوشمان:

«أنا دائما عندما أسمع حديثا عن أمر مستحيل فعلا أصدّق مباشرة. جوزيه بوشمان مستحيل، ألا تعتقدين؟ نعتقد ذلك كلانا، إذن لا بدّ أن يكون حقيقيا.»

أنجيلا لوسيا أعجبتها التناقضات. ضحكت و فيليكس استغلّ ذلك ليتهرّب:

«مادمنا نتحدّث عن قصص العائلات، هل تعرفين أنّك لم تحدّثيني أبدا عن عائلتك؟ تقريبا لا أكاد أعرف شيئا عنك...»

«انكمش كتفيها. يمكن أن ألخّص كلّ السيرة في خمسة سطور فقط، قالت، ولدت في لواندا. نشأت في لواندا، وذات يوم قرّرت الخروج من البلد والسفر، سافرت كثيرا. دائما من أجل التصوير. وأخيرا عادت. تحبّ أن تواصل السفر والتصوير. هذا ما تتقنه. ليس في حياتها شيئا مهمّا باستثناء ذكريات مهمّة لشخصين أو ثلاثة صادفتهم في الطريق. أصرّ فيليكس. كانت البنت الوحيدة أو، العكس، نشأت محاصرة بإخوة؟ والأبوان، ماذا يفعلان؟ أنجيلا أظهرت حركة انزعاج. قامت وعادت لتجلس من جديد. كانت البنت الوحيدة خلال أربع سنوات وبعد ذلك ولد لها أختين وأخ. الأب كان مهندسا والأمّ مضيفة. الأب لم يكن مدمنا على الكحول، لم يكن يشرب الخمر ولم يتحرّش بها جنسيا مطلقا. أبواها يحبّانها. كلّ الآحاد كان والدها يهدي ورودا لزوجته؛ كلّ الآحاد كانت الزوجة تردّ بقصيدة حتّى في السنوات الصعبة. ـ هي ولدت في سنة سبع وسبعين، كانت ثمرة سنوات صعبة ـ لم ينقصها شيء. عاشت طفولة بسيطة وسعيدة أو بالأحرى حياتها لا تصلح لرواية أو لنقل لرواية حديثة. من الصّعب كتابة رواية في هذه الأيام ولا حتى قصّة تكون فيها الشخصية النسوية لم تتعرّض لاغتصاب من أبيها المدمن على الخمر. فموهبتها مذ كانت صغيرة، ومازالت، هي رسم قوس قزح. أمضت طفولتها في رسم قوس قزح. ذات يوم، وعندما بلغت سنّ العاشرة أهدى لها والدها آلة تصوير، كان جهازا بدائيا، عبارة عن آلة بلاستيكية فتركت رسم قوس قزح وأصبحت تصوّر قوس قزح. تنهّدت:

«إلى حدّ هذا اليوم.»

تعرّف فيليكس على أنجيلا لوسيا في افتتاح معرض رسم. أعتقد ـ ولكن هذا ليس إلا مجرّد تخمين ـ أنّه وقع في غرامها منذ أن تبادلا الكلمات الأولى لأنّ الحياة بأكملها جهّزته بأن يستسلم للمرأة الأولى التي لا تتراجع مرتعبة عند رؤيته. عندما أقول تتراجع، افهموني، ليس بأخذ الكلمة بالمعنى الحرفي. هناك

نساء تراجعن فعلا عند تقديمهنّ إلى فيليكس، قمن بحركة صغيرة إلى الوراء، وفي الوقت نفسه كنّ يمددن له أيديهنّ. أغلب المرّات كان تراجعا في الروح، وهذا يعني يمددن له الأيدي (أو الوجه)، يقلن»فرصة سعيدة» ثم يزحن النظر ويلقين تعليقا فضفاضا حول حالة الطقس. أنجيلا لوسيا مدّت له وجهها وهو قبّله وهي قبّلته ثمّ قالت:

«أول مرّة أقبّل أمهق».

بينما فيليكس يشرح مهنته - «أنا عالم أنساب» - وهو ما يقوله دائما عندما يتعرّف على أشخاص غرباء، أبدت مباشرة اهتماما:

«حقا؟! أنت أوّل عالم أنساب أتعرّف عليه».

خرجا سويّا من المعرض، وواصلا المحادثة في شرفة حانة تحت النجوم اللامعة على مياه الخليج السوداء. في تلك الليلة حدّثني فيليكس (هو فقط كان يتكلّم) عن أنجيلا لوسيا وعن تمتّعها بموهبة نادرة: إنّها قادرة على أن تترك أيّة محادثة حيّة دون أن تشارك فيها بكلمة. بعد أن عاد صديقي إلى المنزل قال لي:

«تعرّفت على امرأة خارقة للعادة. آه، يا عزيزي، تنقصني الكلمات اللازمة لوصفها . كلّ ما فيها نور!».

اعتبرت ذلك مبالغة فأينما يوجد نور، يوجد ظلّ.

حلم رقم ٥

جوزيه بوشمان يبتسم. ابتسامة صفراء خفيفة. كنّا داخل عربة قطار بخاريّ قديم فاخرة. هناك ستار يتأرجح في إحدى النوافذ ينير الفضاء بلون نحاسيّ. انتبهت إلى رقعة شطرنج من الخشب الأسود والعاج موضوعة على مائدة صغيرة بيني وبينه. لا أتذكّر أنّني حرّكت قطعة، لكن اللعبة تواصلت. المصوّر الفوتوغرافي كان في تقدّم واضح.

«وأخيرا»، قال، «منذ أيّام وأنا أحلم بهذا. أريد أن أراه. أريد أن أعرف كيف كنت أنت.»

«هل تعتقد، إذن، أنّ تلك المحادثة كانت واقعية؟».

« وقعت المحادثة حتما ولكن الوقائع تفتقر إلى مضمون. هناك حقيقة، وإن كانت غير قابلة للتصديق، في ما يمكن لإنسان أن يحلم به. فجوافة مزهرة، مثلا، ضائعة في مكان ما بين صفحات رواية جيّدة يمكن أن تفرح بعطرها الوهميّ صالات عديدة.»

أُجبرت على الموافقة. أحيانا، مثلا، أحلم أنّي أطير. ولكن لم أطر أبدا برغبة قويّة مثلما حصل في أحلامي. الطيران بالطائرة، في الفترة التي كنت فيها أنا أطير بالطائرة لم ينقل إليّ الإحساس الأصليّ بالحريّة. كنت قد بكيت وفاة جدّتي في الأحلام أكثر من بكائي عليها في اليقظة. ذرفت، علاوة على ذلك، دموعا على موت بعض الشخصيات الأدبية أكثر من رحيل كثير من الأصدقاء والأقارب. الشيء الوحيد الذي بدا لي واقعيا هناك كان الستار خلف جوزيه بوشمان الذي كان في شكل لوحة مائية. ليس واقعيا بسبب موضوع اللوحة طبعا. لم يكن ممكنا تخمين ماذا يمكن أن يكون الموضوع فالذي يمكن أن يكون هو أعلى قيمة في الفنّ الحديث بسبب شعلة الألوان. المساء

تسرّب(سريعا) من النوافذ. رأينا الشواطئ تجري، أشجار جوز الهند محمّلة بثمارها، أشجار الكازارينا برؤوسها الشعثاء. رأينا مرّة أخرى البحر، أعماقه، يحترق بحريق أزرق سماوي. القطار تباطأ في مرتفع، لاهثا، مترنّحا كأنه مصاب بالربو، شبح ميكانيكي قديم، بلا نفس. جوزيه بوشمان تقدّم بالملكة، هدّدني بحصن القلعة. أهديته بيدقا. نظر إليّ شاردا:

«الحقيقة غير مؤكّدة».

ابتسم كبرق:

«الكذب»، فسّر، «موجود في كلّ مكان، فالطبيعة نفسها تكذب. ما معنى التمويه مثلا إذا لم يكن كذبا؟ الحرباء تتنكّر في هيأة ورقة شجرة لتفترس الفراشة المسكينة. تكذب عليها قائلة. ابقي هادئة، عزيزتي، ألا ترين أنّني مجرّد ورقة خضراء تتحرّك مع الريح؟ ثمّ تطلق عليها لسانها بسرعة ستّ مائة وخمسة وعشرين سنتيمتر في الثانية ثمّ تلتهمها.»

أكل البيدق. بقيت في صمت مأخوذا بكلامه وبروائح البحر. تذكّرت فقط جملة مماثلة:

«أمقت الكذب لأنّه عديم الدقّة».

جوزيه بوشمان تعرّف على الكلمات اعتبرها في لحظة بعد أن عاين صلابتها ومعدنها؛ ناجعة:

« تعوّدتْ الحقيقة أيضا على أن تكون غامضة فلو كانت ثابتة فهي ليست ببشرية.» تكسب حركة لحظة قولها: «أنتَ اقتبست ريكاردو رايش. أعطني الإذن لأذكر مونتاني - لا شيء يكون حقيقيا إن لم يبد كاذبا. توجد العشرات من المهن التي يكون الكذب فيها فضيلة. أستحضر الديبوماسيين،

رجال الدولة، المحامين، الممثّلين، الكتّاب، لاعبي الشطرنج. أفكّر في صديقنا المشترك، فيليكس فنتورا، الذي لولاه لما كنّا نحن موجودين. اذكرْ لي الآن مهنة، مهنة واحدة فقط، لم تستنجد أبدا بالكذب وفيها الشخص لا يقول إلا الحقيقة فقط ليكون محبوبا؟».

شعرت أنّني محاصر. هو حرّك أحد الفيلة وكان ردّي بتحريك حصان. منذ أيّام خلت شاهدت في التلفاز لاعب كرة سلّة، شخص بسيط وساذج يحتجّ على الصحافيين:

«أحيانا يكتبون الذي قلته وليس الذي أريد قوله.»

قلت له ذلك فضحك إعجابا. أظنّه صار أقلّ سوء. صفّر القطار طويلا. عواء مذهول انبسط ببطء كأنّه شريط أحمر على سطح شاطئ البحر الصافي. مجموعة من صيّادي السمك على الشاطئ يحيّون القطار. ردّ جوزيه بوشمان على الحركة بأخرى أكبر. قبل دقائق، خلال توقّف قصير، أخرج رأسه من النافذة ليشتري مانغا. سمعته يتجادل مع بائعات الفواكه بلغة مبهمة، موسيقية، وكأنّها مكوّنة من حركات فقط. قال لي إنّه يتكلّم الأنكليزيه بمختلف لهجاتها؛ يتكلّم، أيضا، لهجات ألمانية متعدّدة، فرنسية (باريس) والإيطالية. أكّد لي أنه قادر على المحادثة بسهولة مطابقة بالعربية والرومانية.

«أتكلّم أيضا الرغاء»، قال ساخرا، »اللغة السرية للإبل، وأتكلّم القبع، مثل خنزير بري صغير، أتكلّم لغة صرّار الليل، وهل تصدّق أيضا لغة النسور» ففي محمية مهجورة سأكون جاهزا لمناقشة الفلسفة مع المغنوليات.

قشّر المانغا بسكّين سويسرية. قسمها إلى نصفين. أعطاني النصف الأكبر. أكل نصيبه. حكى أنّه في جزيرة، في المحيط الهادئ، حيث عاش بعض الأشهر يعتبر الكذب هناك أكبر ركن متين في المجتمع. وزارة الإعلام،

وهي مؤسّسة محترمة، وتكاد تكون مقدّسة، مشغولة بخلق أخبار كاذبة ونشرها. وما إن تنتشر تلك الأخبار بين العامّة فإنّها تنمو وتأخذ أشكالا أخرى مضادّة، متسبّبة في تحرّكات شعبية كبيرة ومحفّزة للمجتمع. لنتصوّر أنّ البطالة بلغت نسبة تعتبر خطيرة. فوزارة الإعلام أو بكل بساطة، الوزارة، تترك معلومات تنتشر وتقول إنّه وقع اكتشاف البترول في أعماق المياه. وتؤكد أيضا أنّ البترول اكتشف في المياه الإقليمية التابعة للبلد. فإمكانية انفجار اقتصادي هائل ينعش التجارة، والفنيون المهاجرون يعودون إلى البلد مستعدين للمساهمة في إعادة الإعمار، وفي أشهر قليلة تفتح شركات وتتوفّر فرص شغل جديدة. لا تسير الأمور، طبعا، كما خطّط لها الفنيون. فخلال فرصة ما، فإنّ الوزارة، بالرغم من اسمها، وقد كانت دائما مؤسسة مستقلة عن السلطة السياسية، تتّهم أحد المعارضين بهدف تدمير حياته السياسية بربطه علاقة خارج الزوجية مع فنّانة أنكليزية مشهورة. تكبر الإشاعة وتأخذ بعدا أضخم، يتزوج بالفنّانة (التي لم يكن يعرفها أبدا من قبل) وبهذا يكسب شهرة كبيرة إلى درجة انتخابه رئيسا للبلاد بعد ذلك بسنوات.

«استحالة التحكّم في الإشاعات»، لخّص، «إنّها الفضيلة الأهمّ لذلك النظام. وهذا ما يعطي للوزارة طبيعة تكاد تكون إلهية. ليسقط الملك!».

فهمت أنّني سأخسر اللعبة. قرّرت أن أغامر وأهديه الملكة.

« قال فيليكس فنتورا إنّه يعتقد في كلّ شيء عندما يكون مستحيلا - ولهذا يعتقد فيك...»

«هو قال هذا؟».

«هو قال. أنا لا أصدّق. لا أنت ولا أنجيلا لوسيا. فدائما عندما تكون حادثة أو حادثتين قد قد وقعتا في الوقت نفسه ونحن لا نعرف السبب نقول

كانت حادثة عابرة، كانت محض صدفة. فهذا الذي نعتبره حدثا عابرا لا بدّ من تسميته، ربّما، بالجهل. فكيف لا يفاجئه حدث أنّ صحافيين اثنين، امرأة ورجل صاحبا خبرة طويلة مشتركة في المنفى يعودان إلى البلد في نفس الفترة بالضبط؟».

« بالنسبة إليّ، لا. في نهاية الأمر أنا واحد من أولئك المصوّرين. ولكن أرى من العاديّ أن يفاجئك هذا. فالصدف، يا صديقي، تنتج ذهولا بنفس الشكل وبنفس الشرود كما تنتج الأشجار ظلالا. كش مات.»

أطحت بملكي (الملك الأبيض) وقمت.

شخصيات واقعية

الوزير بصدد تأليف كتاب؛ الحياة الحقيقية لمناضل، مجلّد ضخم من المذكرات يعتزم نشره قبل أعياد الميلاد. وللتدقيق أكثر، اليد التي ستؤلّف الكتاب هي يد مأجورة، تحمل اسم فيليكس فنتورا. صديقي يخصّص جزءا مهمّا من النهار وأيضا من الليل لإنجاز هذا العمل. وكلّما ينتهي من فصل يقرأه على كاتب المستقبل. يناقشان هذه التفاصيل أو تلك وهو يسجّل الأخطاء، يصلح ما يجب إصلاحه وهكذا يتقدّمان. ينسج فيليكس الواقع بالخيال، بمهارة، بدقة، بشكل يحترم الأحداث والمحطات التاريخية المعلومة والمشهورة. يتحاور الوزير في الكتاب مع شخصيّات حقيقية (في بعض الحالات مع شخصيات حقيقية) ويعتقد أنّ تلك الشخصيات ستؤكّد غدا ما تبادلته معه حقًّا من أسرار ووجهات نظر. فذاكرتنا تشحن وتتغذّى في غالبها من ذلك الذي يتذكّره الآخرون عنّا. نسعى لتذكّرها وكأنّها ذكرياتنا المماثلة بما في ذلك الخياليّة منها.

« إنّها مثل قلعة ساو جورج في لشبونة. هل تعرفها؟ هناك زينة في أسوارها؟ لكن تلك الزينة غير أصلية. فأنطونيو دي أوليفيرا سالازار أمر بإضافة تلك الشرفات للقلعة لتبدو أكثر واقعية إذ أنّ قلعة بدون شرفات بدت له خطأ. أنا لا يعنيني ذلك. أراه شيئا مرعبا جدّا. كأنّها جمل دون سنام. الذي يبدو اليوم مزورا في قلعة ساو جورج هو تلك الحقيقة الثابتة. تحدّثت مع كثير من الثمانيين في لشبونة وكلّهم كانوا متأكدين أنّهم رأوا دائما شرفات مزينة على القلعة. هذا ظريف، ألا تعتقد؟ لو كان أصليا لما صدّقه أحد.»

هكذا إذن، ما إن يصدر كتاب الحياة الحقيقية لمناضل، سيكسب تاريخ أنغولا بعدا آخر وسيصير أكثر من تاريخ. فالكتاب سيكون مرجعا للأعمال المستقبلية التي تبحث في نضال التحرّر الوطني، في تلك السنوات المضطربة التي تلت الاستقلال، الحركة الواسعة لدمقرطة البلاد. وسأعطي هنا بعض

الأمثلة:

1) كان الوزير الشابّ في بداية السبعينات موظّفا في بريد لواندا. كان يعزف على طقم طبول في فرقة روك، اسمها المجهولون، وكان منشغلا بالنساء أكثر من السياسة. هذه هي الحقيقة أو لنقل الحقيقة الركيكة. يكشف الوزير في الكتاب أنّه في تلك الفترة تفرّغ للعمل السياسي. كان يناضل سريّا، سريّا إلى أبعد الحدود ضدّ الاستعمار البرتغاليّ. كانت تأخذه حمية دم أجداده ـ وكان يشير كثيرا لسلفادور كوريا دي صا إي بينيفيتش ـ فأنشأ خلية سريّة داخل البريد لدعم منظّمات التحرّر. اختصّ الفريق في توزيع كتيبات داخل المراسلات الموجّهة إلى الموظّفين الاستعماريين. ثلاثة منهم، ومن بينهم الوزير، تمّ إبلاغ البوليس السياسيّ البرتغاليّ عنهم وسجنوا يوم عشرين أبريل من سنة ألف وتسعمائة وأربع وسبعين، وربما تكون ثورة القرنفل هي التي أنقذت حياتهم.

2) غادر الوزير أنغولا سنة ألف وتسعمائة وخمس وسبعين، أسابيع قليلة بعد الاستقلال ولجأ إلى لشبونة. واصل اهتمامه بالنساء أكثر من السياسة. وخوفا من الجوع نشر إعلانا في جريدة شعبية: «المعلم مارمبا يعالج الإصابة بعين الحساد، أمراض النفس، نجاح مضمون في الحبّ والتجارة.» لم يكن ذلك مجرّد إعلان وإنما أصبح هاجسا. فقد استثرى (سحر خالص) في أشهر قليلة. النساء يأتين إلى مكتبه بالعشرات . أغلبهنّ يرغبن في استعادة لفت انتباه أزواجهنّ وإبعادهم عن العشيقات، إحياء زواج فاشل. بعضهنّ يبحثن عن شخص يستمع إليهنّ. وهو يستمع إليهنّ. الزبونات يدفعن، يفسّر الوزير حسب مرتباتهنّ؛ البسيطات يهدين له معاطف صوفية للوقاية من برد الشتاء، بيْضا، مربّى. والميسورات يضعن في يده شيكات بمبالغ ضخمة ويرسلن إلى بيته آلات كهرومنزلية، أحذية جيدة، ملابس فاخرة. هناك شقراء قُدّمت لها هدية، ولكنّها فضّلت أن تعطيها له. مفاتيح

سيارة بخلفية مليئة بقنينات الويسكي. عاد الوزير بعد الانتخابات الأولى إلى لواندا. وبما أنّ العاصمة تراكمت فيها على مرّ السنين مآسي النساء الفاشلات في الزيجات فقد قرّر إنشاء سلسلة مخابز اتّحاد ماريمبا. هذه هي الحقيقة التي رواها الوزير لفيليكس. ولكن للتاريخ تبقى الحقيقة التي طلب فيليكس من الوزير أن يرويها وهي هذه: في ألف وتسعمائة وخمس وسبعين، كان مستاء من مصير الأحداث، ولأنّه رفض المشاركة في الحرب بين الأشقاء («لم يكن هذا الذي اتفقنا عليه»)، تمّ نفي الوزير إلى البرتغال. استلهم الكثير من تعاليم جدّه لأبيه، الرجل الحكيم، العارف المتعمّق في الأعشاب الطبيّة في أنغولا، أسّس في لشبونة عيادة مختصّة في العلاج الموازي الإفريقي. عاد إلى الوطن في سنة ألف وتسعمائة وتسعين بعد نهاية الحرب الأهلية بعزم ثابت على إعادة إعمار البلد. أراد أن يقدّم للشعب الخبز اليوميّ. وهذا ما كان.

3) دشّنت عودة الوزير أيضا بداية ممارسته للسياسة. بدأ بدفع مبالغ لمجموعة من عناصر القواعد، هكذا كانوا يُعرفون، للإسراع في المصادقة على قانونية مخابزه، وفي وقت قصير بدأ يتردّد على منازل الوزراء والجنرالات. سنتان فقط كانتا كافيتين ليُعيّن كاتبا للدولة للشفافية الاقتصادية ومحاربة الفساد. في الحياة الحقيقية لمناضل، شرح الوزير أنّ ما يحرّكه هي فقط المبادئ الوطنية الكبيرة والسامية. قبِل بهذا التحدّي الأوّل. اليوم هو وزير المخابز والألبان.

خيبة أمل

يوجد أشخاص يظهرون مبكّرا موهبة كبيرة في التعاسة. يضربهم الحزن كحجر يوما بعد يوم وهم يتقبّلون ذلك بصدر رحب. وآخرون، على العكس، عندهم استعداد غريب للسعادة. هؤلاء مأخوذون بالأزرق وأولئك بغياهب الهاوية. وهناك أشخاص محكومون بالحلم (هناك من يدفع لهم جيّدا من أجل ذلك)؛ هناك أشخاص ولدوا من أجل العمل، عمليون، وواضحون، لا يتعبون ولا يكلّون، وهناك أشخاص كالأنهار ينطلقون من المنبع إلى المصبّ دون أن يغادروا مجراهم تقريبا. حالة جوزيه بوشمان تبدو لي الأكثر ندرة؛ يميل إلى الذهول، يحبّ أن يُدهش الآخرين ويحبّ أن يصاب بالدهشة:

« قال لي شخص ذات يوم ـ أنت لا تعدو أن تكون سوى مجرّد مغامر، قال لي ذلك بحقارة، وكأنّه بصق عليّ. وفي الأثناء أعتقد أنّه أصاب. أنا أبحث عن المغامرة أو بالأحرى عن الارتجال، عن كلّ ما يبعدني عن الملل كما يبحث آخرون عن الخمر أو القمار. إنّه إدمان.»

ينظر فيليكس فنتورا إليه بحقد كافر. يريد أن يطرح عليه السؤال الحاسم ـ هل عثرت على خيوط بخصوص أمّك؟ ـ ولكنّه يعرف أيضا أنّ هذا الطريق هو طريق الاستسلام. حدّثني في المرّة الأخيرة، في الحلم، عن حالة صديق، الممثل أورلندو سارجيو، الذي تعوّد على أن يتمّ الخلط في الشارع بينه وبين الشخصية التي يمثّلها في مسلسل تلفزيّ شعبيّ مشهور. الناس يعانقونه، يشكرونه، يوبّخونه، موافقين أو معترضين على تصرّفات الشخصية. قلّة هم الذين يعرفون اسمه الحقيقي. بعضهم كان يشعر بالإحباط عندما يقول الممثّل هربا من اللوم والخطب:

«اسمي أورلندو سارجيو. أيهاالسيّد، أنت وقعت في خلط...»

«لا تمزح هكذا أيّها الشيخ، لا تمزح هكذا! اسمتع فقط لنصيحتي، تحلّ بقليل من الصبر، إذن أنا لا أعرف من تكون أنت؟».

شعر فيليكس أنه وقع في فخّ حقيقي. جوزيه بوشمان وصل أمس من جنوب إفريقيا. جاء متنكرا في شخص العقيد تابيوكا. كلّ لباسه كاكي، سروال فضفاض وسترة مليئة بالجيوب. وكلّما تكلّم أخرج من تلك الجيوب أشياء متعدّدة، بنفس الخفّة، كما يفعل ساحر في سيرك يُخرج أرانب من قبّعته:

- هذا ضفدع صغير من البرونز.

«جميل، أليس كذلك؟ لا؟ ألا تحبّ الضفادع؟! طيّب، يا عزيزي، أنا أحبّها. هل تعرف أنّه في بعض الثقافات يعتبر الضفدع رمزا للتحوّل، التحوّل الروحي ممثّلا العبور إلى مرتبة أعلى من الوعي. هذا يعود، كما ترى الآن، أساسا إلى تعقّد مراحل التحوّل التي عانت منها الضفادع ولكن أيضا، وعلى الأقل، بين بعض شعوب الهنود الحمر في الأمريكتين فالأمر متعلّق بخصائص الهلوسة لسمّ خاص ببعض الكائنات. هذا أنسليوس ألفاريوس ضفدع من صحراء صونورا. اشتريته من محلّ لبيع حيوانات في مدينة كابو. كان في واجهة المحلّ. دخلت لأشتريه لأنّي أحبّ الضفادع، فلو أنّني لم أكن أهتمّ بالضفادع ولو لم أدخل إلى ذلك المحلّ لما وجدت هذا:

- لوحة مائية أكبر بقليل من بطاقة بريديّة.

«إنّها غزلان هاربة. انظر الأعشاب تتحرّك، الغزلان تسبح فوق العشب، وكأنّها في حفلة رقص. الآن تثبّت في التوقيع، هنا في هذا الركن، أتستطيع أن تقرأ؟ إيفا ميلر. وأخيرا تثبّت من التاريخ ـ الخامس عشر من آب(أغسطس) ألف وتسعمائة وتسعين. رائع، أليس كذلك؟».

فهمت أنّ فيليكس فنتورا كان مذعورا. أمسك البطاقة بيديه، بعناية، وكأنّه يخشى من أنّ لااحتمالية الشيء قد تكون حلاً وسطا لإيمانه بالواقعية ذاتها. «هذا غير ممكن.»، حرّك رأسه، «لا أدري ماذا تنتظر. أعتقد أنّه من غير المعقول أن تذهب بعيدا....»

والآن انظر هذه، هل تتصوّر أنّني أنا الذي رسمها؟ لا. لا! حدث بالضبط كما قلت لك. وجدتها في محلّ بضائع قديمة مخفيّة وسط عشرات الرسوم الأخرى من نفس النوع. أمضيت العشية أبحث عن بطاقات موقّعة من طرفها ولكن دون جدوى. للأسف لم أجد أكثر. المحلّ تمّ شراؤه بالجملة من طرف رجل أنكليزيّ قرّر مغادرة البلاد بعد أن فاز نيلسون منديلا بالانتخابات بقليل. لم يبق له أثر». «إذن لم تستطع أن تعرف شيئا عن إيفا ميلر؟» جوزيه بوشمان لم يجب مباشرة. أخرج من جيب آخر من داخل السترة:

- ظرف صغير من الصور الملوّنة.

«انظرْ هذا المبنى يطابق عنوان الرسالة التي بعثتها إيفا ميلر لماريا دونكان. يقع في حيّ تسكنه الطبقة البرجوازية الوسطى البيضاء. هل زرت مدينة كابو؟ إنّه مكان غريب. تصوّر مركز تجاريّ حديث تزيّن محلاته نخلات عالية. النخلات جميلة، هي بلاستيكية ولكن لا تدرك ذلك إلا إذا لمستها. مدينة كابو تذكّرني بالنخلات البلاستيكية. مدينة مثيرة للإعجاب. نظيفة جدّا ومنظّمة جدّا. إنّه وهم يحلو لي أن أصدّقه. هذا هو الشخص الذي يسكن اليوم في الشقّة التي عاشت فيها أمّي. هل انتبهت إلى الندوب؟ كان يعيش في مابوتو في الثمانينات. كان شخصية كبيرة في الحزب الشيوعيّ الجنوب إفريقيّ. ركب سيّارته ذات عشيّة. شغّل المحرّك و بوممم! انفجار فظيع. فقد عين والرجلين. وجدته لطيفا. هو من ذلك

الصنف الذي ناضل حياة بأكملها ضد الأبرتايد، ولم يستطع التأقلم جيّدا مع بلد قوس قزح. يلوم ألا أحدا يدافع اليوم عن الأفكار. يعتقد أنّ انتصار النظام الرأسمالي انحرف بالشعب. تزعجه الديمقراطية وقوانينها الليبرالية ولكن، الشيء الوحيد الذي يحنّ إليه حقيقة هو شبابه الذي خسره وعينه ورجليه. لم يسمع أبدا بإيفا ميلر. ولكن هذا السيّد الآخر الذي في الصورة، مسنّ ينحدر من سلالة المستوطنين البوير، يكاد يبلغ المائة، هذا نعم قد تذكّر جيّدا أمّي.»

التصقت فوقهما بالضبط معلّقا بالسقف، ورأسي إلى الأسفل حتى أستطيع رؤية كلّ شيء بأدقّ التفاصيل. أوقد فيليكس القنديل ليتفحّص الصّور. صورة البويري المسنّ(بالأبيض والأسود كما باقي الصور) كانت جيّدة. كان جالسا على كرسيّ صلب من الخشب الداكن. ضوء مائل خفيف ينزل على نصف وجهه الأيمن ينير ملامحه بصمت. ويظهر في الركن الأيمن السفليّ ويكاد يغرق في الغبش، ظلّ صورة لتلك الجراء الصغيرة التي تحبّ رفقتها النساء البرجوازيات والتي، تمثّل لي دائما إزعاجا، فهي تشبه الفئران الأليفة أكثر منها الكلاب.

«هل أعجبتك الصورة؟ أنا أيضا.» ابتسم جوزيه بوشمان:»أجمل الصور ليست تلك التي تلخّص شخصية ما ولكن تلك التي تلخّص مرحلة. طيّب، هذه العجوز استقبلتني بنوع من الحذر ولم تُضع معي وقتا طويلا ولكن، في المقابل، أهدتني نهاية لرحلة بحثي عن أمّي. هل تريد أن ترى؟.

- قصاصة من جريدة «أوسيكيلو»، جوهانسبورغ.

«هل أنت جاهز؟ أعتقد أنّ هذا يمكن تسميته بالأمر المضادّ للحظّ. أنت ستقول لي. هيّا اقرأ!» فيليكس أطاعه:

«ماتت إيفا ميلر ـ توفّيت مساء أمس في مقرّ إقامتها في سي بوينت، في مدينة كابو، الفنّانة التشكيلية الأمريكية إيفا ميلر. كانت قد عاشت في جنوب أنغولا وتتكلّم جيّدا لغتنا، السيّدة ميلر كانت شخصية محترمة جدّا بين الجالية البرتغالية في جنوب إفريقيا. وفي السنوات الأخيرة تنقّلت بين مدينة كابو ونيويورك. سبب موتها غير معروف إلى حدّ الآن.»

حيوات غيـــر مهمّة

الذاكرة هي مشهد مكمّل لقطار يتحرّك. نرى نور الفجر يشعّ على شجر الأكاسيا، الطيور تهاجم الصباح كما تهاجم طعامها، نرى هناك بعيدا نهرا هادئا مكلّلا بالأشجار يعانقها. نرى ماشية ترعى في هدوء، زوجان يجريان يدا بيد، صبية يلعبون الكرة، الكرة تلمع تحت الشمس (الشمس الأخرى). نرى البحيرات الصافية حيث يسبح البطّ، غدائر ثقيلة المياه تشفي العطش. هي أشياء تمرّ أمام أعيننا، نعرف أنّها حقيقية ولكنّها بعيدة ولا نستطيع لمسها. هناك أشياء هي الآن بعيدة والقطار يتحرّك بسرعة وليس عندنا تأكيد لما يحدث حقًّا. ربّما كنّا نحلم. تخوننا الذاكرة، هكذا نقول، وكانت السماء قد سادها الظلام، لا غير. وهذا هو الذي أشعر به بالنسبة إلى حياتي السابقة قبل التناسخ. أذكر حوادث عابرة، غير مترابطة، أجزاء من حلم واسع. امرأة في حفلة. في نهاية الحفلة في موجة الدخان تلك، الخمر، التعب الميتافيزيقي الكبير. تمسكني من ذراعي وتهمس لي:»هل تعرف أنّ حياتي يمكن أن تكون رواية وليست أيّة رواية. رواية عظيمة...»

أعتقد أنّ ذلك حصل أكثر من مرّة. أغلب أولئك الأشخاص، وأنا متأكّد، أنّهم لم يقرأوا أبدا رواية عظيمة.

أعرف اليوم وأعتقد أنّني كنت أدرك هذا من قبل، أنّ كلّ حياة هي استثنائية. فرناندوا بيسوا حوّل سيرة ركيكة لموظّف بسيط في أحد المكاتب إلى كتاب اللاطمأنينة الذي يمثّل، ربّما، أهمّ كتاب في الأدب البرتغاليّ. عندما أسمع أنجيلا لوسيا تبوح بلا أهمية حياتها، تعتريني رغبة في أن أتعرّف عليها

أكثر. فإن حصل وعانقتني امرأة ذات ليلة لتقول شيئا يشبه؛ هل تعرف ليس هناك في حياتي ما هو هام، يوجد فقط القليل الممكن. ربّما سأكون وقتها قد وقعت في غرامها. على الرغم من اندساس بعض أعدائي المدعومين من بعض أصدقائي في حياتي فقد كنت دائما ميّالا إلى النساء. أحببت النساء. كنت معتادا على أن أتمشّى طويلا مع صديقة جديدة. أعانقها عند الوداع ورائحة شعرها ولمس نهديها الصلبين تثيرني ولكن، إذا حدث وبادرت بتقبيلي، أو اقترحت عليّ شيئا ما أكثر من القبلة فإنّني أتذكّر مباشرة دغمار(أورورا، ألبا، أو لوسيا) فأقع في ورطة. عشت سنوات طويلة حبيس ذلك الرعب.

إدمـــوندو باراطا دوش رايـش

حلّ جوزيه بوشمان هذه الليلة مصحوبا برجل مسنّ. لحيته طويلة بيضاء، وضفائره شهباء تنزل على كتفيه. عرفت فيه مباشرة المتسوّل الذي كان المصوّر يتبعه منذ أسابيع كظلّه وكان قد أظهره في صورة خارقة للعادة يخرج من حفرة تصريف للمياه كإله صغير، ثائر، بشعر مبعثر وبعينين لامعتين وبرّاقتين.

«أريد أن أقدّم لك صديقي، إدموندو باراطا دوش رايش، عميل سابق في وزارة أمن الدولة».

«عميل سابق!، قل، قبل عميل سابق، مواطن مثاليّ سابق ظهر بين المطرودين، عميد المستبعدين، حماقة وجودية، زائدة ضئيلة ومنفجرة. في كلمتين: متشرّد محترف. فرصة سعيدة».

مدّ فيليكس فنتورا له أطراف أصابعه بحيرة واشمئزاز. مسك إدموندو باراطا دوش رايش يده بقوّة طويلا ناظرا إليه عن جنب(كعصفور) ولكن حذرا ومستهزءا ومتلذّذا بعدم ارتياح الآخر.

كان جوزيه بوشمان يلبس سترة جميلة من حرير عسلية اللون، مكتوف الأيدي، يبدو مرحا. عيناه الصغيرتان والمدوّرتان تلمعان في عتمة الصالة كانعكاس الزجاج:

«توقّعت أنّك ستسعد بمعرفته. فحياة هذا الرجل تبدو وكأنّها من ابتكارك...»

«عفوا؟».

«كلّي آذان صاغية. هكذا كانوا ينادونني. اسمي الحركي. كنت أحبّه. كنت أحبّ أن أسمعه. وحدث ما حدث! وقع علينا جدار برلين، تبّا يا أبانا!

كنت عميلا في يوم ثمّ أصبحت عميلا سابقا في اليوم الموالي.»

ارتجف فيليكس:

« هل كنت تلميذ الأستاذ غاشبار؟».

ابتسم إدموندو باراطا دوش رايش متفاجئا:

آه. نعم. نعم والرفيق أيضا كان؟».

تعانق الرجلان بحرارة صادقة. تبادلا الذكريات. باراطا دوش رايش كان أكبر سنّا من فيليكس فنتورا بفارق كبير. تابع دروس الأستاذ غاشبار في فترة كان فيها التلاميذ السود يعدّون على أصابع اليد الواحدة في معهد سالفادور كورايا. أنهى دروسه وعمل في قسم الأحوال الجويّة. سجن في الستينات تقريبا، متّهما بمحاولة تجنيد شبكة مفجّرين في لواندا. أمضى سنوات في مركز التجميع في طارافال في الرأس الأخضر. «كوخ دجاج»، كان يسميه، «ولكن الشاطئ كان جيّدا». تعارفهما تمّ أسابيع قليلة بعد الاستقلال. أصدقاء وأعداء مثل السيد «كلّي آذان صاغية». سنتان في هافانا وتسعة أشهر في برلين(الشرقية) وستّة أشهر أخرى في موسكو، هكذا شحذ الطاقة وعاد لزرع الاشتراكية في إفريقيا.

«شيوعيّ! هل تصدّق؟ أنا الشيوعيّ الأخير جنوب خطّ الاستواء...»

خسر ذلك العناد. تحوّل خلال أشهر قليلة إلى عائق إديولوجي. شخص مزعج. لا يشعر بالعار حين يصرخ ـ «أنا شيوعيّ!» في الوقت الذي كان رؤساؤه يهمسون بصوت منخفض.»كنت شيوعيّا» وواصل صياحه،»أنا شيوعيّ، نعم، أنا ماركسي لينيني إلى أبعد الحدود!» حتى بعد أن أنكر البيان الرسمي للدولة الماضي الاشتراكي للبلاد.

«رأيت أشياء، يا أبي!».

جلس جوزيه بوشمان واضعا ساقا على ساق على الكرسي الكبير الذي جلبه جدّ فيليكس فنتورا من البرازيل. أدخل يده اليمنى في جيب السترة الداخليّ وأخرج علبة سجائر فضيّة. فتحها. أزاح ببطء التبغ ولفّ سيجارة. أنارت ابتسامة خبيثة وجهه:

«احك له ما رويت لي، يا إدموندو، قصّة الرئيس...»

نظر إدموندو باراطا دوش رايش إليه بصمت عميق، غاضبا، محرّكا بعنف شعر لحيته. ظننت لحظة أنّه سيقوم. خشيت أن يخرج. جوزيه بوشمان ربت على كتفيه».

«تبّا! يمكنك أن تتكلّم، لا توجد عيون. هنا لا يوجد إلا فيليكس وهو شخص رائع جدّا علاوة على أنكما كنتما من ضمن تلاميذ ذلك الأستاذ المشهور غاشبار، أليس كذلك؟ وهذا في حدّ ذاته يعني الكثير. قال لي فيليكس كأنكما تنتميان إلى نفس القبيلة...»

«أبدلوا الرئيس بشبيه له»، إدموندو باراطا دوش رايش قال ذلك بسرعة برق ثم صمت. عيناه جالتا في الصالة باضطراب. وكأنّه عصفور يبحث عن نافذة مفتوحة، عن ضوء، عن قليل من سماء ليفرّ. خفض صوته:»غيّروا المسنّ ووضعوا مكانه نظيرا له، فزاعة ربّما، ما أدراني ماذا يسمّون ذلك! مجسّم شخص.»

«أبناء القحبة» انفجر فيليكس مقهقها. أنا لم أسمعه أبدا يتفوّه ببذاءات ولم أره أيضا يضحك بهذه الطريقة وهذا العنف. ارتعب جوزيه بوشمان ثم قلّده. ضحك الاثنان ثمّ ضحك الثلاثة. قهقهة وراء أخرى. وأخيرا هدأ فيليكس.

«عندنا إذن رئيس وهمي» قال ماسحا الدموع بمنديل « شككت في أن تكون عندنا حكومة وهمية. نظام قضائيّ وهميّ. عندنا، خلاصة، بلد وهميّ. لكن احك لي من عوّض الرئيس؟».

اتّكأ إدموندو باراطا دوش رايش على الكرسي. لم يعد يتذكّر الربّ فما بالك، بإله مقاتل يبدو وكأنّه كلب ذليل. نتن. رائحته بول، أوراق شجر وفواكه متحلّلة. استقام وعوض أن يجيب الأمهق التفت لجوزيه بوشمان موجّها إليه إصبعه:

«هذه القهقهة...إنّي أرى هذه القهقهة، أبتي، وأرى شخصا آخر في زمن بعيد، بعيد جدا. في زمن آخر. زمن قديم. نحن لم نتعارف الآن؟».

«لا أعتقد». توتّر المصوّر. «أنا من شبيا. هل أنت من شبيا؟».

«ماهذا يا أبتي، أنا لواندي قحّ...»

«إذن ليس ممكنا».

«نعم» أكّد فيليكس فنتورا». ينحدر بوشمان من هناك، من الأرياف، من عمق الجنوب. هو ماوتوسي...»

«ماوتوسي. غابتنا تبدو كحديقة ولكن حدائقكم، هنا في لواندا، على قلّتها، تبدو كأنّها غابات».

«هدوءا. لتسقط القبليّة. لتسقط الجهويّة. تحيا السلطة الشعبية ـ أليس هذا ما كان يقال من قبل؟ الذي أودّه هنا هو أن يجيبني الرفيق إدموندو على سؤالي. في النهاية من ظهر في شكل الرئيس؟».

تنهّد إدموندو باراطا دوش رايش بعمق:

«الروس، أعتقد ذلك. وربّما الاسرائيليون. مافيا السلاح، الموساد، ما أدراني. فهم تكتّل العار».

«هذا ممكن. معقول. وكيف تفطّنت إلى الانقلاب؟».

«أنا أعرف الشبيه. فأنا الذي انتدبته! وانتدبت أيضا آخرين. فالمسنّ لم يظهر علنا أبدا. بدأ أشباهه يظهرون. ولكن، رقم ثلاثة كان دائما الأفضل. الوحيد الذي كان قادرا على الكلام دون إثارة أية شبهة، أمّا الآخرون فيظلّون في صمت ولا نستعملهم إلا في المناسبات التي تحتّم ظهور الرئيس شخصيّا. رقم ثلاثة كان حالة استثنائية، موهبة نادرة، ممثّلا حقيقي. كنت قد حضرت مرحلة تكوينه. أخذ منّا خمسة أشهر. تعلّم بسرعة كيف يتحرّك، كيف يتوجّه إلى الناس، لكنة الصوت، المراسيم، سيرة الرئيس المسنّ، كلّ ذلك كان مثاليّا أو يكاد لكن الحقير كانت عنده مشكلة واحدة أنّه أيسر. ومع ذلك يبدو وكأنّه صورة الرئيس في المرآة. ولذا تعرّفت عليه. ألم تنتبه إلى أنّ الرئيس صار الآن أيسر؟ لا. لا لم ينتبه. لم ينتبه أحد.»

«متى اكتشفت ذلك؟».

«منذ سنة، سنة ونيّف».

«هل مازلت تعمل لصالح الأمن؟».

«أنا؟ أنا أعيش متشرّدا منذ أكثر من سبع سنوات. هل ترى هذا القميص؟ فقد تحوّل إلى جلد. إنّه قميص الحزب الشيوعيّ لجمهوريات الاتحاد السوفياتي الاشتراكية. لبسته يوم فصلوني ولم أخلعه أبدا. أقسمت ألا أخلعه إذا لم تعد روسيا شيوعيّة. والآن، حتى وإن رغبت، لا أستطيع خلعه. فقد صار جلدا، ألا ترى؟ المطرقة والمنجل موشومان في صدري. هذا لن يزال؟».

لم يزل حقًا. نظر إليه فيليكس فنتورا مصابا بدوّار. ابتسم جوزيه بوشمان وكأنّ لسان حاله يقول «وماذا إذن أليست ظاهرة هذه؟». استأنف إدموندو باراطا دوش رايش الحديث في هيئة إله محارب قديم. هزّ ضفائره الشهباء الثقيلة بعنف ناشرا حوله رائحة فظيعة.

«حساء؟»، سأل، «أليس عندك حساء؟».

****

«أنت مجنون!» أكّد فيليكس فنتورا بعد خروج إدموندو باراطا دوش رايش. وأعاد ذلك مرّة أخرى وبحزم. لم يكن جاهزا ليضيع وقتا أكثر في ذلك الموضوع ولكن جوزيه بوشمان ألحّ:

«أعرف أشياء أكثر غرابة.»

«اسمع. الرجل معتوه تماما. فقد رشده. أنت كنت مسافرا في الخارج لمدّة طويلة ولا تعرف ما الذي حصل لنا في هذا البلد الملعون. كانت لواندا مليئة بالعقلاء ولكن، فجأة، صار الناس يتكلّمون بلغات غريبة أو يبكون لأسباب واهية، أو يضحكون، أو يلعنون ويسبّون. وبعضهم يفعل كلّ ذلك في الوقت نفسه. بعضهم يظنون أنّهم ماتوا ولا أحد إلى حدّ الآن يملك الشجاعة لإعلامهم بذلك. وبعضهم يعتقدون أنّ بإمكانهم الطيران. وغيرهم مقتنعون تماما أنّهم حقًا يطيرون. إنّها سوق مجانين هذه المدينة. يوجد مجانين هناك في تلك الشوارع تحت الأنقاض، في الأحياء القصديرية المحيطة، وظهرت أيضا أمراض لم يتوصّلوا حتى لوصفها ومعرفتها. لا يأخذون مأخذ الجدّ ما يقال لهم، هل تقبل نصيحة؟ لا تأخذ أحدا مأخذ الجدّ.»

«ربّما لم يكن مجنونا حقًا. لعلّه يتظاهر بالجنون.»

«لا أرى فرقا. فشخص اختار أن يعيش في الشوارع، داخل حفرة تصريف مياه، ويعتقد في عودة روسيا إلى الشيوعية وأكثر من ذلك، يظنّ أنّه يخلط بينه وبين أحد المجانين، لا يكون إلا مجنونا بالنسبة إليّ».

«ربّما يكون ذلك. وربّما لا.» بدا جوزيه بوشمان خائبا:

«أودّ أن أعرفه أكثر.»

الحب، جريمة

«مررنا هنا بسنوات صعبة.»

تنهّد فيليكس. كان الحرّ خانقا. والرطوبة ملتصقة بالجدران. أمّا هو فقد كان جالسا على الكرسيّ الكبير، مستقيما، لابسا بدلة كحلية من طراز جيّد زادت رونقا لتوهّج بشرته. كان يتعرّق الكرامة. كانت أمامه تحضن وسادة حريرية، تلبس قميصا ملوّنا وسروالا قصيرا أحمر. أنجيلا لوسيا تستمع إليه باسمة.

«في فترة ما كان عليّ أن أقوم بكلّ شيء بنفسي لأنّني لا أستطيع أن أدفع لخادمة. كنت أنظّف البيت، وأغسل الملابس، وأطبخ، وأعتني بالنباتات. لم يكن هناك أيضا ماء فأجبر على الذهاب لجلبه حاملا تتكة على رأسي كبائعة الخضار والفواكه من منبع حفره أحدهم في الاسفلت، هناك في المنعطف عند المقبرة في آخر الشارع. تحمّلت تلك السنين كلّها لأنّني كنت أنفذ ما يطلب مني؛ ـ فنتورا، اذهب اجلب الماء، وفنتورا يذهب.»

«فنتورا؟».

«أنا بنفسي وفنتورا كان شبيهي. في مرحلة معيّنة من الحياة نتحوّل إلى صنوين».

اعتقدت أنجيلا لوسيا أنّها رائعة نظرية إدموندو باراطا دوش رايش تلك. تحمّست لفكرة الصنو والشبيه. شاهدا معا كثيرا من الأشرطة التي يظهر فيها الرئيس. فيليكس فنتورا وأعتقد أنّني قلت ذلك من قبل، كانت عنده مجموعة بمئات أشرطة الفيديو. أثبتت، ويا للمفاجأة، أنّه في التسجيلات القديمة كان المسنّ يوقّع على الوثائق بيده اليمنى. وفي البقيّة يستعمل دائما اليسرى. انتبهت أنجيلا لوسيا أيضا إلى أنّه في بعض الصور عنده ثؤلولة صغيرة فوق

عينه اليسرى وفي الأخرى لا.

«يمكن أن يكون قد اقتلعها» علّل فيليكس. «الناس اليوم يمحون العلامات الجسدية كما تمحى بقعة حبر».

لاحظت أنجيلا لوسيا أنّ الرئيس بالثؤلولة ظهر في تسجيلات سابقة وفي أخرى لاحقة دون ثؤلولة.

«لا بدّ أن يكون أحد الشبيهين به».

ظلا كلّ العشيّة منغمسين في تلك اللعبة. وبعد خمس ساعات، وقد هبط الليل، كانا قد تعرّفا على ثلاثة شبهاء للرئيس على الأقلّ. صاحب الثؤلولة، وواحد بصلع خفيف، وواحد، أقسمت أنجيلا، أنّ في عينيه لمعان البحر الهادئ.

«بخصوص اللمعان لا أناقشك»، قال فيليكس. كان قد تذكّر فنتورا، شبيهه:»هل تصدّقين لقد مررنا بسنوات صعبة هنا.»

كانت المرأة تريد أن تعرف ماذا فعل من أجل العيش. حرّك فيليكس كتفيه. عشت في حالة سيّئة. قال متمتما. كنت في البداية أستأجر روايات. إيسا دي كايروش، كاميلو كاشتيلو برانكو، جورج أمادو، لأنّ قليلا من الناس كانت لديهم المقدرة على شرائها. وفي مرحلة متأخّرة بدأ يرسل حزماً من الكتب إلى لشبونة، حيث يبيعها والده إلى الكتبيين، أو إلى الزبائن المختارين. استطاع فاوشتو بنديتو فنتورا أن يشتري مكتبات ممتازة بأرخص الأثمان من المستعمرين اليائسين، خلال الأشهر العصيبة التي سبقت الاستقلال. بادل خاتما فضّيا بمجموعة مجلّدة من الصحف الأنغولية من القرن التاسع عشر. مكتبة طبيّة في حالة جيّدة متكوّنة من أكثر من مائة جزء بتكلفة ثمن ربطة عنق من حرير، وببضعة الدولارات حصل على خمسة عشر صندوقا مملوءة بكتب التاريخ. وبعد سنوات عاد بعض المستعمرين ليشتروا منه بعض الكتب، مصففة في

حزم ذات عشرة أعداد، وبسعرها الرسميّ.

«كانت تجارة رابحة».

تلهب الحرارة أرضية المنزل الخشبية. دخل نسيم رطب من شقوق الأبواب، بدفعات بطيئة، محمّلا بملح البحر وإشاعاته، بروائح السمك، بضوء القمر الخافت. كانت بشرة أنجيلا لوسيا لامعة. القميص ملتصق بالنهدين. لم يخلع فيليكس السترة. لابدّ أن يكون يطهى في دواخله. أمّا أنا، فلا أريد سوى شقًا باردا لأغطس فيه. ذهبت حتّى المطبخ؛ هناك في الأعلى، أعلى الزجاج أرى، علاوة على باب الحديقة الكبير، ضجيجا خفيفا آت من الأحياء الفقيرة وأرى هوّة كبيرة سوداء ونجوم. الهوّة السوداء كانت البحر. بقيت وقتا كافيا أنظر إليه. تخيّلت نفسي أغرق في الصمت، في الظلمات، كما كنت سابقا، القلب يدقّ بشدّة، واليدان تضربان الماء، برد خفيف تسرّب عبر القدمين حتى يصل الحزام. ذلك برّدني. عندما رجعت إلى الصالة وجدت فيليكس قد خلع السترة وجلس على الوسائد الكبيرة أمام التلفاز معانقا أنجيلا لوسيا. مروحة السقف تطلق هواء دافئا في تجريف متراخ عند ملامسته الجدران. غبار بعمر قرون، قراد، أرواح كتب قديمة قفزت من الصفحات الكبيرة ورقصت في الهواء كضباب كحلم غامض تضيئها أنوار التلفاز. صور، بل صوت، بالأبيض والأسود؛ الرئيس في اجتماع، الرئيس في لباس رياضي يلعب كرة القدم. الرئيس يسلّم على رؤساء آخرين، ثمّ بالألوان صور الرئيس يدشّن بستانا. «بستان أبطال المفاتيح القدامى» يقرأ ذلك في اللافتة. تضحك أنجيلا لوسيا. قطع الرئيس الشريط. التفت فيليكس إلى المرأة وقبّلها من شفتيها. لقد رأيتها، بلا ذهول، قد أغلقت عينيها واستسلمت للقبلة. سمعتها تئنّ. حاول الأمهق خلع القميص. وهي منعته.

«لا. هذا لا. لا تفعل هذا.»

رفعت ساقيها في حركة أنيقة وخلعت السروال. القميص ملتصق بالجسد تاركا المجال لتخيّل النهدين المدوّرين المذهولين والبطن الناعم. ثم أدارت جسدها جاثية على ركبتيها فوق فيليكس. الكتفان، عريضان، كتفا سبّاحة جميلة، يظهران الخصر أكثر رقّة. تنهّد صديقي:

«ما أجملك..»

مسكته أنجيلا من قفاه وقبّلته. قبلة عميقة.

وهكذا تركني بلا نفس.

****

كانت أمّي أطول منّي بقليل، وطبعا، كلّما تقدّمنا في العمر، جنبا إلى جنب، دائما جنبا إلى جنب بدأ ذلك الفارق يتقلّص. أعتقد، علاوة على ذلك، أنّها تكبر ببطء أكثر منّي. وبعد مرور فترة طويلة حصل ذلك بالفعل. فإذا خرجنا معا فإنّ أحدهم ينظر إليها ويخاطبني قائلا «زوجتك؟» وربّما لو عشنا زمنا أطول لاعتقدوا أنّها ابنتي. أعتقد أنّ هذه التفاصيل تعجبها. تصرّ على أن تناديني بالصبيّ. وذات يوم، وقد كانت تقارب المائة، قرّرت أن تموت ولذا راقبت خيوط وجودي.

«يا صبيّ لا يمكنك أن تعود متأخّرا إلى البيت».

وأنا، أتجاوز الثمانين، مازال يتملّكني الرعب عند العودة إلى البيت بعد منتصف الليل. عندما كنت أخرج لأتجوّل مع صديقة ما، كنت أشعر بلزوم الاتصال بالبيت كلّ نصف ساعة لكي لا تشعر الأمّ بالعذاب. كانت تنتظرني، يقظة، مراقبة، والقطّ في حضنها.

«يا صبي لا تشرب الخمر».

كنت جالسا حول طاولة الحانة أشرب كأس حليب في حين كان أصدقائي، يسخرون منّي بلطف إذا سكروا بويسكي أو بيرة. بذلت أمّي جهدا كبيرا لتبعدني عن كلّ النساء اللاتي تشكّ في أنّهن، في يوم ما، يمكن أن يبعدنني عنها. القبيحات كنّ يمثّلن راحة لها وخاصّة البليدات أولئك ترميهنّ أمّي في أحضاني متأكّدة أنّني سأرفضهنّ. فكانت توبّخني:

«يا صبيّ تعتقد أنّك مطلوب. هكذا ستبقى أعزب».

لا أقصّ عليكم هذا بغاية التبرير. سيكون من الأجحاف إلصاق كرهي للنساء بغيرة أمّي أو بشدّة أبي. كنت من كنت لأنّه كانت تنقصني الشجاعة لأكون مختلفا. أرى فيليكس فنتورا يمرّر أصابعه على جسم حبّه المرتعش. أراه يسرّ بكلمات لذيذة في أذنها. أراه يحملها بين ذراعيه إلى الغرفة (المرأة تحتج، ...تصرخ بقهقه سعيدة) ويضعها على السرير. أراه، أخيرا، ينام مرهقا وبدأت أفهم كيف وصلت إلى هنا.

****

ينام فيليكس واضعا يده اليمنى على صدر المرأة. اليد نائمة على نهدها. عينا أنجيلا مفتوحتان. ابتسمتْ. قفزتْ بهدوء وقامت. لبست فقط القميص الملّون. ساقاها طويلتان، ناعمتان، ضيقتان بطريقة غريبة عند الكعب. تدور في الغرفة دون إحداث أيّ صوت. تبعد الظلّ الخفيف بلمسة إصبع، تفتح باب الحمّام وتشعل النور وتدخل. تخلع القميص. تغسل وجهها وكتفيها والإبطين. ألاحظ في ظهرها بعض الندوب الداكنة التي تبدو إهانة لجلدها الذهبيّ المخمليّ. يخيّل لي أنّني أرى ندوبا أخرى مشابهة تماما من خلال المرآة على صدرها وبطنها. أعود إلى الغرفة. تمتم فيليكس بشيء ما. أعتقد أنّني

فهمت كلمة سباسب. أودّ أن أتحدّث معه. ربّما لو نمت الآن لوجدته في بدلته البيضاء من الكتّان الخالص وقبّعته القصبية الجميلة تحت شجرة استوائية عالية في نقطة ما من تلك السباسب التي كان يعبرها في الحلم.

ترن، ترن!

كان رنين جرس الباب. ترن، ترن!. رنين مستعجل. خبط على الباب. ترن، ترن! يقفز فيليكس من السرير، أبيض عار كأنّه طيف، يمدّ يده للأباجور ويشعل النور. أنجيلا لوسيا، بجانبه، مذعورة تلفّ بشكيرا على جذعها.

«من يكون؟».

«ماذا؟ لا أدري حبيبتي، أحدهم يطرق الباب. كم الساعة الآن؟».

«إنّه ليل. الرابعة وعشرون دقيقة.» قالت أنجيلا ذلك دون أن تنظر إلى الساعة. بعدها تلقي نظرة على معصمها وتؤكد «نعم». الرابعة وعشرون دقيقة. لا أخطئ. من تراه يكون؟».

«ليست عندي فكرة!».

ترن، ترن، ترن! خبط على الباب. صوت ينادي. يفتح فيليكس الخزانة ويخرج رداء أبيض. يلبسه. تستيقظ أنجيلا لوسيا:

«انتظر». صوت رخو في تمتمة:»لا تذهب!».

«بلى، سأذهب ابقي أنتِ هنا.»

أتبعه من خلال السقف جريا. يتطلّع فيليكس من نافذة الصالة. الظلام يغطّي الشرفة. ترن، ترن!!! يقرّر فتح الباب. يقفز إدموندو باراطا دوش رايش

بين ذراعيه، يدفعه، ويغلق الباب.

«تبا! يا رفيق إنهم ورائي. إنّهم هناك حقا. يريدون قتلي».

«من يريد قتلك. تبّا؟ اشرح لي».

«الفتيان».

كان بملابسه الداخلية. حافيا. قميص الحزب الشيوعيّ لاتّحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية يبدو أنّه استعاد، ربما من شدّة الذعر، قليلا من لونه الأصليّ. أو ربّما هو فعلا دم. يهزّ إدموند الشعر الأشيب. عيناه تقفزان من مآقيهما. يجري من ركن لآخر في الصالة. ينزل الستائر. يراقب فيليكس حركاته فاقدا الصبر.

«اهدأ. اجلسْ واهدأ. سأحضر لك شايا».

اتّجه نحو المطبخ. إدموندو تبعه. أنزل الستائر وأغلق النوافذ. هكذا فقط اطمأنّ قليلا. جلس على مقعد وأسند يديه على الطاولة بينما كان فيليكس يضع الماء على النار.

«حساء. أليس عندك حساء؟ أنا أفضّل حساء...»

تظهر أنجيلا لوسيا عند الباب. تلبس قميص رجل، أزرق واسعا جدا يكاد يصل إلى ركبتيها. لا بدّ أنّها أخذته من خزانة الملابس. تنتعل خفّي فيليكس. أيضا هما خفّان كبيران. تبدو هشّة جدا بهذا اللباس وكأنّها طفلة.

إدموندو التمس:

«عفوا، يا آنسة، لم أقصد إزعاجك...»

«ماذا حدث؟».

هزّ فيليكس كتفيه:

«سيقتلونه، إدموندو هذا. اتركيني أقدّمه لك. هذا هو السيد إدموندو باراطا دوش رايش، عميل سابق في أمن الدولة. أو عميل سابق حسب رأيه هو نفسه. حدّثتك عنه؟».

«من يريد قتله؟».

«يريدون قتله والسيد يريد حساء. وهاهو الحساء جاهز...»

ترن، ترن! ترن، ترن!

أخفى إدموندو باراطا دوش رايش رأسه بين ركبتيه. فيليكس ارتجف.

«اهدأ سأخرج لأرى من يكون. لا تخرجا من هنا حتّى أحلّ كلّ شيء. أنجيلا، لا تتركيه يخرج.»

عاد إلى الصالة. تنفّس وفتح النافذة. عرفت، في حياتي السابقة، أشخاصا هكذا. يرتعبون من تحريك الريح لأوراق الشجر. يرتعبون من الخنافس، هذا فضلا عن الشرطة، والمحامين، إلى جانب أطباء الأسنان. ولكن عندما يطلع التنين بين الأشجار يفتح فمه و يقذف النار يواجهونه واقفين. صارمين، باردين كملائكة.

«ماذا تريد؟».

يدخل جوزيه بوشمان الصالة. يحمل مسدّسا في يده اليمنى. يرتعش. يرتعش أكثر صوته أيضا:

«أين هو النذل؟».

«قبل كلّ شيء أعطني السلاح ففي بيتي لا يدخل رجال مسلّحون...»

قال ذلك بحزم. دون أن يرفع صوته. متأكّدا من طاعته. لكن الآخر تجاهله. قطع الرواق في خطوات طويلة وذهب مباشرة إلى المطبخ. تبعه فيليكس محتجّا. أنا أجري. لا أريد أن تفوتني المسرحية. وقفت أنجيلا لوسيا عند الباب بذراعين مفتوحين:

«من هنا لا تمر!»، انفجر،» تبّا! من أيّ جحيم خرجت أنت؟».

أسمع صوت إدموندو باراطا دوش رايش يهمس مذعورا وبعد ذلك فقط رأيته. كان ملتصقا بالجدار. قفاه ويداه إلى الأسفل. القميص يلمع أحمر على بطنه النحيل. حافة المنجل ولون المطرقة الذهبيّ ومضا في لحظة ثم اسودّا.

«هذا، يا آنسة، سقط من الجحيم! من الماضي! من هناك من حيث تخرج الخطيئة...»

ظلّ جوزيه بوشمان محصورا بين أنجيلا، من أمامه، وفيليكس، وراءه ماسكا بذراعيه. وجهه ملتصقا بالمرآة. يصرخ. بدا لي، فجأة، عملاقا. عروق رقبته تحتقن وتنبض وتقفز إلى الجبين:

«بالضبط، سقط من الماضي. من أنا قولوا له من أكون!».

يقفز فجأة في دفع شرس مبعدا أنجيلا. يقفز على إدموندو ويمسكه من رقبته، بيده اليسرى، ويجبره على الركوع عند رجليه. ويضع فوهة المسدّس في عنقه:

«قل لهما من أنا!».

«شبح. شيطان...»

«من أنا؟».

«ثوري مضادّ. جاسوس. أكبر عملاء الامبريالية...».

«واسمي؟».

«غوفايا. بيدرو غوفايا. كان يجب أن تموت سنة سبع وسبعين.»

جوزيه بوشمان يركله. ركلة. اثنتان. ثلاث.أربع. خمس. كان ينتعل حذاء أسود ثقيلا يحدث ضجيجا قاتما عندما يصطدم بالجسم. إدموندو لم يصرخ. ولم يحاول حتى تفادي الضربات. الركلات تصيب معدته، صدره، فمه. الحذاء صار أحمر.

«قرف! قرف!».

جوزيه بوشمان، أو بيدرو غوفايا، كما تريدون. وضع المسدّس على الطاولة. واصل الصراخ «قرف! قرف!» وكأنّ دم الآخر يحرق قدميه. ثم جلس على مقعد وأخفى وجهه بين يديه وغطس في بكاء طويل. ينتفض فيهتزّ جسده كاملا. انزوى إدموندو باراطا دوش رايش في ركن من المطبخ. جلس وظهره مسندا للجدار ورجلاه ممدودتان. ابتسم:

«لم أنسك. وأيضا لم أنسها، مارتا، الشابة مارتا مارتينيو، مسلّحة بالثقافة، شاعرة ورسّامة وما أدرانا ماذا أيضا. كانت حامل، في أواخر الحمل. بطن ضخم ومدوّر. مدوّر كثيرا. يخيّل لي أنّي أراها الآن.»

التصق فيليكس بالباب المؤدّي إلى الرواق معانقا أنجيلا ينظر إلى المشهد مذهولا. بيدرو غوفايا يبكي. لا أدري هل سمع ما قاله إدموندو باراطا

دوش رايش العميل السابق في أمن الدولة هذا. يبدو أنّه منشرح. صوته يهتزّ، صارما، باردا، في صمت الليل:

« حصل ذلك منذ وقت طويل أليس كذلك؟ زمن النضالات» وأشار إلى أنجيلا. «أعتقد أنّ الآنسة لم تولد بعد وقتئذ. كانت الثورة في خطر. شلّة من الصبيان، مجموعة من البرجوازية الصغيرة اللامسؤولة حاولت الاستحواذ على السلطة بالقوّة. كان علينا أن نكون أقوياء. لن نضيع الوقت في المحاكمات، قال المسنّ في خطابه إلى الأمّة، ولم نُضعه فعلا. فعلنا ما كان يجب فعله. فعندما تتعفّن برتقالة نخرجها من الصندوق ونضعها في حاوية الزبالة، وإذا لم نفعل ذلك فسوف تتعفّن باقي الحبّات. ارم برتقالة أو اثنتان، ثلاث تنقذ البقية. وهذا ما فعلنا. عملنا كان فصل حبّات البرتقال الجيدة عن المتعفنة. وهذا الشخص غوفايا كان يعتقد أنه بمجرّد ولادته في لشبونة يمكن أن يفرّ. اتّصل بقنصل البرتغال، سيدي القنصل، أنا برتغاليّ، حاليا أنا متخفّ في مكان ما، تعال أنقذني لو سمحت. وأيضا معي زوجتي وهي سوداء ولكنّها تنتظر طفلا منّي. آه! آه! هل تعرف ماذا فعل القنصل البرتغاليّ؟ ذهب يبحث عنهما وبعدها سلّمهما لي. آه! آه! أشكرك جدّا أيها السيّد القنصل، قلت له، الرفيق ثوريّ ساذج، عانقته بقوّة مكرها، طبعا، فلا تتوقّعوا أنّه لم يكن عندي وازع، وددت لو بصقت على وجهه ولكنّني عانقته. ودّعته ثم ذهبت لاستجوب الفتاة. تحمّلتْ يومين. وفي الأثناء ظهرتْ هناك. كانت صبية صغيرة جدا، بهذا الحجم، دم، دم، عندما أفكّر في ذلك المشهد لا أرى سوى دم. مابيكو أحد الهجناء من هناك من الجنوب، كان قد تعرّض منذ زمن لحادث غبيّ، طعنتان باردتان في حانة في لشبونة، ولم يعرف أبدا من كان صاحب ذلك الفعل. مابيكو قصّ صرّة المولود بسكّين، ثم أشعل سيجارة وبدأ يعذّب الرضيع. أحرقه في ظهره وفي صدره، دم. تبّا! دم فظيع! الفتاة، مارتا، بعينيها القمريتين كان صعبا عليّ أن أحلم بها، والرضيع يصرخ ورائحة اللحم المحروق تفوح. إلى حدّ هذا اليوم

عندما أغفو وأنام أشعر بتلك الرائحة وأسمع بكاء الرضيع.»

«اخرس!».

قال فيليكس. بصرخة هائجة، بصوت لم أعهده فيه. يعيد:

«اخرس! اخرس!».

هنا حيث أوجد، في أعلى الخزانة، أرى جمجمته تلمع بوميض من الغضب. يبتعد عن أنجيلا ويتّجه إلى إدموندو، يده مكبوسه صارخا:

«اختفِ! اغربْ من هنا!».

قام العميل السابق بعناء. لمس السقف. نظر نظرة يأس إلى جوزيه بوشمان وفي نفس الوقت أطلق قهقهة هائجة:

«الآن لم تبق عندي ذرّة شكّ. أنت نفسك. غوفايا المتعصّب. في ذلك اليوم كدت أتعرّف عليك من خلال القهقهة. كنت تضحك كثيرا في اجتماعات المتعصبين، ذلك قبل أن يسلّمك القنصل، مواطنك، بين يديّ. في السجن كنت فقط تبكي. تبكي كثيرا، كثيرا كالنساء. أنظر إلى هذا البكاء وأتذكّر الصبي غوفايا. الثأر، هذا ما كنت تريد؟ هذا ينقصه حبّ لتحقيقه. ينقصه شجاعة! قتل رجل فعل رجال».

إذن

وكما

يحدث

في حفل رقص

بطيء:

أنجيلا تقطع المطبخ،

تذهب مباشرة إلى الطاولة،

وبيدها اليمنى تمسك بالمسدّس،

وباليسرى تزيح فيليكس

توجّه المسدس إلى بطن إدموندو

وتطلق النار.

صرخة نبتة البوغنفيليا

في الحديقة، في المكان الذي دفن فيه فيليكس فنتورا جثّة إدموندو باراطا دوش رايش مستقيمة تنبت الآن وتزهر بوغنفيليا. نَمَتْ بسرعة وهي تغطّي الآن جزءا من السور، وتميل على الممرّ هناك في الخارج تمجيدا أو إدانة حيث لا أحد يعيرها اهتماما. جازفت منذ أيام بالخروج وحيدا للمرّة الأولى إلى الحديقة. تسلّقت السور وقلبي ينتفض. تشرق الشمس على قطع الزجاج المكسور. انزلقت بينها محتاطا وأطللت على العالم. رأيت شارعا عريضا جدّا من الطين الأحمر وبيوتا قديمة هرمة، غير منظّمة، منتشرة في الجهة الأخرى. أناس يعبرون يصرخون. أرهبني عرض السماء الخالي من السحب. صمت الضوء الثقيل، سرب من الطيور تحلّق في شكل دوائر. عدت مسرعا إلى أمان المنزل. ربّما أخرج مرّة أخرى إذا تحسّن الطقس قليلا. الشمس تصعقني، تؤلم جلدي ولكن أحبّ أن أشاهد طويلا هذا الشعب الذي يمرّ.

يمشي فيليكس حزينا. تقريبا لا يتكلّم معي ولكنّه اليوم قطع الصمت. دخل البيت، خلع نظارته الشمسية، وضعها في جيب سترته الداخليّ ثم خلع السترة وعلّقها على ظهر الكرسيّ. بعدها أخرج حقيبة وأراني ظرفا صغيرا مربّعا في ورق أصفر.

«وصلت صورة أخرى، أرأيت يا صديقي؟ هي لم تنسنا إلى الآن».

فتح الظرف بعناية تجنّبا لتمزيقه. كانت نجمة قطبية. قوس قزح ينير نهرا. في الركن العلوي الأيمن يظهر رسم صغير لطفل عار يسبح في المياه. كتبت أنجيلا لوسيا بالحبر الأزرق، على طرف الصورة: توقّف، مياه هادئة

والتاريخ. راح فيليكس يبحث عن علبة دبابيس، من تلك الصغيرة ذات الرؤوس المدوّرة والملوّنة. اختار واحدا، أخضر غامق، وعلّق الصورة على الجدار. ثم ابتعد ثلاث خطوات ليرى النتيجة. جدار قاعة الجلوس مقابل النوافذ يكاد يكون كلّه تقريبا مغطى صورا. تشكّل المجموعة نوعا من الزجاج المعشق الذي يذكرني بتجارب دفيد هوكناي مع الأقطاب المضيئة. تسيطر عليها ظلال الأزرق.

أدار فيليكس فنتورا الكرسيّ الكبير للجدار وجلس عليه. ظلّ هكذا وقتا طويلا. ثابتا، صامتا يرقب رحيل نور المساء الخفيف في لقائه مع النور الخالد المنبعث من الأقطاب. امتلأت عيناه دموعا. مسحها بالمنديل. وقال لي:

«أنا أعرف. تريد منّي أن أسامحها. آسف جدّا، يا صديقي، لكنّني لا أستطيع. أعتقد أنّني غير قادر.»

المتنكّر

الرجل الذي دخل منذ قليل يذكّرني بشخص ما، لكنّني لا أستطيع أن أجزم بمن هو بالضبط. طويل، وسيم، أنيق. شعره أشيب قصير يعطيه مظهر نبالة ولكن وجهه العريض، غير المهذّب، يكذّب ذلك مباشرة. أراه يقطع كنمر ضوء المساء النائم. يتجاهل يد فيليكس الممدودة إليه ثم يجلس على الأريكة الجلدية مستقيما، والنكد ظاهر قليلا على ملامحه. يتنفّس بعمق. يمرّر أصابعه على أطراف الأريكة.

«جئت لأقصّ عليك حكاية غير حقيقية. سأقصّها عليك لأنّني أعرف أنّك لن تصدّقني. أريد أن أغيّر هذه القصّة غير المؤكدة، قصّة حياتي، بأخرى بسيطة وقويّة. قصّة رجل عاديّ. أنا سأعطيك حقيقة مستحيلة وأنت أعطني كذبة شائعة ومقنعة ـ فهل تقبل؟».

بدأ جيّدا. جلس فيليكس مهتمّا.

«أرأيت هذا الوجه؟» الرجل أشار بيديه الاثنتين وجهه. «نعم، إنّه ليس وجهي».

صمت في وقفة طويلة. تردّد وفي النهاية بدأ:

«سرقوا وجهي وكيف، إذن، سأفسّر لك؟ سرقوه منّي. ذات يوم استيقظت ووجدت أنّهم أجروا عليّ عملية تجميليّة. تركوني في عيادة مع ظرف ملآن دولارات وبطاقة بريدية. شكرا على الخدمات المقدّمة. اعتبر أنّه قد تمّ تعويضك. هذا ما قالته البطاقة. كان يمكنهم أن يقتلوني. لا أدري لماذا لم يقتلوني. ربّما لاعتقادهم أنّني هكذا أبدو أكثر موتا أو أنا توهّمت ذلك. يريدونني أن أتعذّب. في الأيام الأولى تعذّبت حقّا. فكّرت في أن أفشي الحالة. بحثت عن أصدقاء. بعضهم لا يثقون بي. بعضهم يصدّق رغم هذا القناع الذي ألبسه الآن لأنّي

في النهاية أعرف بعض الأشياء لكنّهم تظاهروا بأنّهم لا يعرفون. الإلحاح بدا لي خطيرا. بعد ذلك، ذات مساء مثل هذا كنت وحيدا في شرفة حانة في آخر جزيرة. بدأت أتلذّذ بشعور خارق. لا أدري كيف أسميه. الآن أعرف ـ حرية! هذا الشعور الذي يعتريني هو إحساس رجل حرّ. عندي مورد رزق. حسابات هناك في الخارج تجعلني أعيش جيّدا إلى آخر أيام حياتي. وفي المقابل لست مثقلا بمسؤوليات، بانتقادات، بندم، بحسد، بكره، بأحقاد، بمؤامرات القصر، وخاصّة الشعور بأن أحدهم سيخونني يوما ما.»

هزّ فيليكس فنتورا رأسه مذعورا:

«عرفت شخصا، أحد المجانين من أولئك التعساء الذين يمشون هناك في المدينة يعطل السير ويدافع على نظرية غريبة. كان يعتقد أنّ الرئيس تمّ تعويضه بشبيهه. قصته تذكرني بهذه...»

نظر الرجل إليه بفضول. صوته أصبح أكثر نعومة. يكاد يكون حالما:

«كلّ الحكايات مترابطة. في النهاية كلّ شيء متّصل بغيره» تنهّد:

«ولكن هناك فقط بعض المجانين. قليلون جدّا ومجانين جدا باستطاعتهم فهم ذلك، وفي النهاية ما يعنيني هو إيجاد عكس ذلك الذي كنّا نعارضه دائما. أريد أن تعطيني ماضيا متواضعا. اسما بلا شهرة. شجرة عائلة غامضة ولا يمكن دحضها. لابدّ أنّه قد وجد أناسا أغنياء دون عائلة ولا مجد، أليس كذلك؟ أريد أن أكون واحدا منهم...»

حــلــم رقــم ٦

يقف أمامنا قفص عال عريض وواسع، في مساحات منه تزقزق عصافير؛ ببغاوات، طيور شمعية المناقير، طيور الخضيراء، حمام، طيور حمراء الصدور، كانت تجلس على كراس بلاستيكية مهترئة تحت ظلّ معطّر لخرطوم ضخم. يمتدّ على يسارنا حائط واطئ من الطوب مطليا بالأبيض. أشجار بابايا شاهقة محمّلة بثمار تتمايل حول السور بكسل المهجّنين. ناظرة يمينا في اتّجاه المنزل حيث تصطفّ أشجار البرتقال والليمون والجوافة، وهناك في الأمام تطل شجرة التبلدي، تبدو وكأنّها نبتت هناك لتذكّرني دائما بأنّ ذلك ليس سوى حلم. خيال محض. دجاجات تنقر في الوسط. في الطوب الأحمر وفي العشب الأخضر أعشاش الكتاكيت. فتح جوزيه بوشمان لي ابتسامة نصر شفّافة. «أهلا وسهلا بك في مثواي المتواضع.»

صفّق بيديه فظهرت صَبيّة نحيلة، خجولة، بلباس قصير وصندل بلاستيكيّ في رجليها الخفيفتين. ظهرت من الظلال. طلب جوزيه بوشمان منها أن تحضر له بيرة باردة ولي عصير كرز. أحنت الصبية رأسها دون أن تنبس بكلمة واختفت. عادت بعد قليل تحمل في طبق ملوّن قنينة بيرة وكأسين وجرّة عصير. ذقت العصير مرتابا. كان طيبا، مرّا وحلوا في نفس الوقت، كان باردا جدّا ورائحته قادرة على إنارة الروح الأكثر عتمة.

«نحن في شبيا. ولكن أنت تعرف ذلك أليس كذلك؟ مهما شكرت صديقنا المشترك، عزيزنا فيليكس، لأنّه اختلق هذا البلاط، لن أقدر مطلقا على أن أفيه حقّه».

«عفوا على الفضول. هل يوجد فعلا قبر في مقبرة هنا في المنطقة باسم ماتيوش بوشمان؟».

« يوجد. هناك بعض القبور قد دمّرت وهو من بينها لم لا؟ قبر أبي. طلبت إحضار شاهدة. هل رأيتها. هل رأيت الصورة؟ أليس كذلك؟».

«أتفهّم. ولوحات إيفا ميلر المائية؟».

«وجدتها حقّا في محلّ بضائع قديمة، في مدينة كابو، كان دكانا خارقا يبيع من كلّ شيء قليلا. من المجوهرات إلى ألبومات الصور، مرورا بآلات التصوير القديمة. إيفا ميلر اسم معروف. لا بدّ وأنّه يوجد في العالم عشرات أسماء رسّامات اللوحات المائية بهذا الاسم. الخبر القصير عن موتها في «سيكيلو جوهانسبورغ» نعم، أنا الذي اختلقته، بمساعدة صديق لي، مصوّر برتغاليّ. كنت محتاجا إلى أن يصدّق فيليكس سيرتي. فإذا صدّقها هو فكلّ الناس تصدّقها. اليوم، حقيقة، حتى أنا أصدّقها. أنظر إلى الوراء إلى ماضيّ فأرى حياتين. في واحدة كنت بيدرو غوفايا وفي أخرى جوزيه بوشمان. مات بيدرو غوفايا وجوزيه بوشمان عاد إلى شبيا.»

«هل كنت تعرف أنّ أنجيلا لوسيا كانت ابنته؟».

«أعرف. خرجت من السجن سنة ألف وتسعمائة وثمانين، محطّما تماما، جسديّا ونفسيّا وبسيكولوجيّا. ذهب إدموندو معي إلى المطار. وضعني في طائرة وأرسلني إلى البرتغال. لا أحد كان في انتظاري. لم تعد لي عائلة هناك، عائلة معروفة على الأقلّ. لم يتبقّ شيء ولا حتى رابط بسيط. أمّي المسكينة ماتت في لواندا عندما كنت مسجونا وكان أبي مع امرأة أخرى في ريو دي جانيرو منذ سنوات. لم يكن لي اتّصال به أبدا. أنا ولدت في لشبونة، وهذا صحيح، ولكنّني انتقلت إلى أنغولا رضيعا. لم أكن قد بدأت الكلام وقتها. كانوا يقولون لي أنّ البرتغال بلدي، قالوا لي ذلك في السجن المساجين الآخرين، رجال الشرطة، ولكنّني لم أشعر أنّني برتغاليّا. بقيت في لشبونة سنتين أو ثلاث أعمل مصحّحا لغويّا في أسبوعية. كنت في تلك الفترة على اتّصال بمصوّري الجريدة. بدأت

أهتمّ بالتصوير الفوتوغرافي. أخذت دروسا مكثّفة وسافرت إلى باريس ومنها إلى برلين. بدأت أعمل كمصوّر مراسل وخلال سنوات وعقود جبت العالم من حرب لأخرى محاولا نسيان نفسي. جنيت الكثير من المال، نعم الكثير ولكن لم أعرف ماذا أفعل به. لا شيء جذبني. كانت حياتي هروبا. ذات مساء وجدت نفسي في لشبونة، نقطة في الخريطة بين نقطتين. مكان عبور. في مطعم في روشتورادورش حيث دخلت منقادا وراء رائحة الدجاج المطهيّ التي كانت أمي تعدّه. عثرت هناك على صديق قديم. كان هو أوّل من حدّثني عن أنجيلا. ابن القحبة إدموندو كان دائما مسرورا حين يحدّثني عند الاستجواب عن كيفية قتل زوجتي. قال لي أيضا أنّهم قتلوا الرضيع. وفي النهاية لم يقتلوه. سلّموا الطفلة لمارينا، أخت مارتا، وكانت هي التي ربّتها. ربتها كابنتها. وعندما علمت بذلك بقيت غير مستقرّ. مرّت السنوات وهرمت. كنت أريد أن ألتقي بابنتي، كنت أريد أن أكون إلى جانبها ولكن كانت تنقصني الشجاعة لأقول لها الحقيقة. بقيت مهووسا. انتابني كره وحقد وحشيّ ضدّ أولئك الناس، ضدّ إدموندو. كنت أريد قتله. اعتقدت أنّي لو قتلته سأستطيع أن أنظر في عينيْ ابنتي. لو قتلته ربّما أولد من جديد. رجعت إلى لواندا دون أن أعرف بالضبط ماذا سأفعل. خشيت أن يكتشف أمري. وجدت في الفندق على طاولة الحانة بطاقة صديقنا فيليكس «يقدم لأبنائك ماض أفضل». كانت ورقة ثمينة. في طبعة جيدة. جاءتني وقتها فكرة اللقاء به. بهويّة أخرى من السهل عليّ التنقّل في المدينة دون إثارة الشبهات. فيمكن أن أقتل إدموندو وأختفي. ولكن كنت أريده أن يعرف لماذا عليه أن يموت. أردت أن أواجهه بجرائمه. في النهاية أعترف أنّني كنت أريد الثأر. كان من الصعب العثور عليه وعندما وجدته كان قد أصابه الجنون. أو على الأقل كان يبدو مجنونا. ذهبت معه إلى بيت فيليكس لأنّي كنت في حاجة إلى رأي شخص ما. فيليكس اعتبر أنّ إدموندو مجنون وفي تلك اللحظة فكّرت في الانسحاب. لا يمكن أن أقتل مجنونا. ذات مساء انتظرته يخرج من حفرة تصريف المياه حيث تعوّد الاختباء ودخلت. هناك، في تلك الحفرة القذرة،

كان يوجد فراش، ملابس وسخة، مجلات، أدب ماركسي. هل تتصوّر؟ أرشيف تقارير أمن الدولة حول عشرات الأشخاص. قضيتي كانت من الأوائل. كنت هناك ماسكا مصباحا يدويا بيد والأرشيف بأخرى مذعورا مضطربا عندما ظهر إدموندو فجأة كشبح. قفز من الحفرة إلى الداخل. على بعد خطوات منّي. ماسكا سكينا بيده. ضحك. ابتسامته يا الهي! قال لي: نحن الاثنان من جديد وجها لوجه، الرفيق بيدرو غوفايا، هذه المرّة سأقضي عليك. وهاجمني. أبعدته بركلة وسحبت المسدّس من حزامي. كنت قد اشتريت ذلك المسدّس قبل أيام من روك سانتيرو وأطلقت النار. الرصاصة أصابته بجرح طفيف في البطن. رميت المصباح، رميت كلّ شيء مذعورا. تسلّق هو الحفرة. مسكته من رجليه بقوّة، اهتزّ، ترنّح، و قفز خارجا تاركا سرواله في يدي. جريت خلفه. والبقية أنت تعرفها. فقد كنتَ هناك. كنت شاهدا على الذي حصل بعد ذلك.»

«وأنجيلا كانت تعرف أنّك والدها؟».

«هي أقسمت بأن نعم. حكت لي أنّ مارينا أخفت المأساة لعدّة سنوات وذات يوم، كان ذلك لا مفرّ منه، كانت هناك زميلة لأنجيلا، على ما أعتقد صديقة في الجامعة لمّحت لها بشيء ما. ردّ فعل أنجيلا كان سيئا للغاية. غضبت من مارينا وزوجها، أبواها، ففي النهاية هما أبواها الحقيقيان. شخصان رائعان. غضبت منهما وغادرت أنغولا. سافرت إلى لندن. سافرت إلى نيويورك. عرفت أنّني مصوّر فوتوغرافي وهذا ما دفعها إلى الاهتمام بالتصوير. أصبحت مصوّرة مثلي ومثلي أنا صارت رحّالة. منذ أشهر كنتَ قد استغربتَ من صدفة أن نكون كلانا مصوّرين، وأن نكون قد عدنا إلى البلد تقريبا في نفس الفترة. أنت لم تصدّق أنّها كانت مجرّد صدفة. طيب، وكما ترى لم تكن صدفة خالصة. أقسمت لوسيا أنّها ما إن رأتني ذات ليلة، هل تذكر؟ كانت ليلة في بيتكما. أقسمت أنّها ما إن رأتني ووقعت عيناها على عينيّ حتى عرفت من أكون. لا أدري. عندما أتذكّر ذلك اللقاء لا أشعر إلا بالذعر. بالنسبة إليّ كان

لقاء غريبا. أنا، نعم، كنت أعرف من هي. ولا أحدا منّا نبس بكلمة. بقينا صامتين. مرّت الشهور وفي ذلك المساء أطلقتُ النار على إدموندو وهو هرب يبحث عن ملجأ، عن الشخص الوحيد الذي يمكنه استقباله ـ فيليكس فنتورا، التلميذ السابق للأستاذ غاشبار، أحد رجال قبيلته..»

سكت جوزيه بوشمان. شرب ما تبقّى من البيرة بجرعة طويلة وظلّ بعدها صامتا وعيناه سابحتان في الأعشاب الكثيفة. كان مرتاحا في تلك الحديقة.

ينزل الظلّ علينا كجرّة ماء بارد. رائحة دخان سجائر تنضمّ إلى أصوات العصافير.

حلّ النعاس. رغبة في إغماض عينيّ ولكنّني قاومت فلو نمت في تلك اللحظة سأصحو بعد لحظات وقد مسخت وزغة.

«هل عندك أخبار عن أنجيلا؟».

«أحاول. لا بدّ أنّها الآن بصدد النزول عبر الأمازون في تلك القوارب البطيئة، الكسلى، والتي تغطى ليلا بشِباك صالحة للنوم. السماء جميلة هناك. نور كثير في المياه. أرجو أن تشعر بالسعادة.»

«وهل أنت سعيد؟».

«أنا أخيرا في سلام. لا أخشى شيئا. لا أقلق من شيء. أعتقد أنّ هذا يمكن تسميته سعادة. هل تعرف ماذا يقول. هوكسلي؟ السعادة ليست عظيمة أبدا».

«ماذا سيكون أمرك؟».

«ليست لديّ فكرة. ربما أصير جَدّا».

فيليكس فنتورا يبدأ في كتابة يومياته

وجدت هذا الصباح أولاليو ميّتا. أولاليو المسكين. وقع على أرجل السرير وكأنّه عقرب هائل. حشرة فظيعة. كان ميّتا بين الأسنان. مات شجاعا في الصراع. هو الذي كان يعتقد أنّ الشجاعة تنقصه. وجدته في الحديقة ملفوفا في منديل من حرير، من أفضل مناديلي، بجانب جذع شجرة الأفوكادو. اخترت جانب شجرة الأفوكادو الملتفت إلى الغروب من الجهة الرطبة المغطاة بالطحالب لأنّه هناك يوجد ظلّ دائما. أولاليو مثلي تماما لا يحبّ الشمس. سأفتقده. قرّرت أن أبدأ بكتابة هذه اليوميات. أتبع اليوم بالذات وهما بأنّ أحدا سيسمعني. لن أجد مطلقا مستمعا مثله. أعتقد أنّه أفضل صديق عندي. سأظلّ معتقدا أنّني سأراه في الأحلام. فالذكرى التي تبقّت منه تبدو كلّ مرة، في كل ساعة تمرّ، كأنّها بناء في الرمل. ذاكرة حلم. ربّما أنا حلمت به وبجوزيه بوشمان وإدموندو باراطا دوش رايش.

لا أجرؤ على الحفر في الحديقة بجانب شجرة البنغفوليا لأنّه ترهبني إمكانية ألا أجد شيئا. أنجيلا لوسيا وإن حلمت بها فقد حلمت جيّدا. الرسائل التي مازالت ترسلها لي مرّة كل ثلاثة أو أربعة أيام تكاد تكون واقعية. فقد اشتريت من ألطايير عبر الانترنت خريطة كبيرة للعالم. ألطايير في برشلونة هي مكتبتي المفضّلة. فكلّما سافرت إلى برشلونة أخصّص يومين أو ثلاثة لأهيم في ألطايير، أتصفّح الكتب والخرائط والمجلات وألبومات الصور الفوتوغرافية لتنظيم الرحلات التي سأقوم بها يوما ما؛ التخطيط لتلك الرحلات التي لن أنجزها أبدا. علّقت الخريطة على جدار الصالة ملتصقة بجانب صور النور التي تركتها أنجيلا لوسيا. كلّ البطاقات تحمل علامة تبيّن المكان الذي أخذت فيه الصورة وهكذا أستطيع بسهولة تتبّع مسارها (حدّدت كل مكان بدبوس أخضر الرأس).

أرى أنجيلا لوسيا تنزل الأمازون حتى تصل بيلين دو بارا. أخمّن أنّها استأجرت سيارة بعد ذلك أو، وهو احتمال يبدو لي كبيرا، أخذت الحافلة في اتّجاه الجنوب. أرسلت من ساو لويس دو مارنيا صورة لقارب صغير بشراع مربع: نهر آنيل، ٩ فبراير. بعد أربعة أيام وصلتني صورة ليد طفل صغير يلقي طائرة من ورق سماءً. نهر ينزلق للعمق ثقيلا تحت الشمس البطيئة: جزر الكناراياس، دلتا دو بارانيبا، ١٣ أبريل. ليس صعبا تخمين الطريق التي ستتبعها في الأيام القادمة. اشتريت أمس تذكرة إلى ريودي جانيرو. وسأطير بعد غد من مطار سانتوس ديمونت إلى فورتالازا. أعتقد أنّه ليس صعبا العثور عليها. فإذا كان جوزيه بوشمان قد استطاع أن يعثر على ابن بلدته في كشك اتصالات في برلين والإشارة الوحيدة الدالة عليه كانت أضواء المرور، فإنّي بسرعة سأعثر على امرأة هوايتها تصوير السحب. لا أدري ماذا سأفعل حين أجدها. أرجو منك، أنت صديقي أولاليو، في أيّ مكان تكون أن تساعدني على اتّخاذ القرار الصحيح. أنا إحيائي. كنت دائما إحيائيا. ولكن قليلا فقط من تلك الأقدار تحقّق معي. يمرّ على الروح شيء مشابه لما يحدث للماء: فقد انهمرت سائلا. اليوم نهر وغدا بحر. يأخذ الماء شكل الوعاء. داخل القارورة تظهر قارورة أخرى ولكنّها ليست قارورة تماما. أولاليو هو دائما أولاليو سواء في لحم أو سمك. تحضرني صورة بالأبيض والأسود لمارتن لوثر كينغ يخطب في الجماهير: عندي حلم. كان عليه أن يقول قبل ذلك: أنا أنجزت حلما. هناك فرق، لو فكّرنا مليّا، بين أن يكون لك حلم وأن تحقّق حلمك.

أنا حقّقت حلما.

لشبونة، ١٣ شباط (فبراير) ٢٠٠٤.

الكاتب:

جوزيه إدواردو أغوالوزا.

ولد في أنغولا سنة ٠٦٩١. درس الزراعة في لشبونة. يعيش مؤخرا بين أنغولا والبرازيل والبرتغال. بدأ مسيرته الأدبية سنة ٨٨٩١ بنشر رواية تاريخية بعنوان «المؤامرة». نشرت له أعمال أدبية كثيرة تتوزّع بين الرواية والقصة والمسرح والمقالة وكتب الأطفال. نشرت أعماله في أكثر من ٠٢ بلد. حصلت روايته «بائع الماضي» على جائزة انتبندت البريطانية للرواية الأجنبية.

قيل في أغوالوزا

«كيف نصف جوزيه إدواردو أغوالوزا، الكاتب الأنغولي الكبير صاحب رواية «بائع الماضي»؟ كافكا الإفريقي؟ بورخيس جديد؟ مثله مثل الكاتب الموزمبيقي ميا كوتو، يخلط أغوالوزا بين عناصر الواقعية السحرية الأميركية اللاتينية وبين السخرية السياسية. إنّه رائد في الجمع بين الأجناس الأدبية، أيقونة أدبية، ومن أكثر الأصوات المبدعة التي تصلنا من إفريقيا اليوم.»

أندرسون تيبر، تايم آوت، نيويورك بمناسبة صدور النسخة الأمريكية من بائع الماضي

«أغوالوزا يرقص ويضحك على عتبة الدموع».

دايفد كونستنتين،انتبندت، بمناسبة صدور الترجم الأنكليزية لبائع الماضي.

يلجأ فيليكس فنتورا، بعد نهاية الحرب الأهلية الأنغولية إلى اكتشاف مهنة جديدة وغريبة ومثيرة، تعارض الزمن وتتدخل في تعديل الحقيقة والثبات. إنّه تاجر يبيع ماضيا مجيدا لزبائنه الجدد من الطبقة البرجوازية الصاعدة في العاصمة لواندا، فيؤثّث لهم ذكريات سعيدة، ويخلق لهم أنسابا متأصلة في الجاه والنبالة .إنّهم "رجال أعمال، وزراء،

مزارعون، تجّار ألماس، جنرالات، ناس عاديون؛ يعني أصحاب مستقبل مضمون. لا ينقص هؤلاء الناس إلا ماض جيّد وأجداد مشاهير" .

كانت تجارة فيليكس فنتورا رابحة وناجحة حتّى ظهر له ذات يوم زبون غريب يبحث عن هويّة أنغولية جديدة وماض ناصع فيحدث ما لم يكن في الحسبان، ويبدأ مكر التاريخ فيشتدّ الاشتباك بين الماضي والحاضر، بين الواقع والخيال وتختلط الأوراق.

إنّ شخصيات رواية "بائع الماضي" التي ابتدعها جوزيه إدواردو أغوالوزا ومتمثّلة في الرواي أولاليو(الوزغة) وفيليكس فنتورا، وجوزيه بوشمان، وأنجيلا لوسيا، وإدموندو باراطا دوش رايش ستتحدى لزمن طويل خيال الكتّاب الأفارقة وغيرهم ولن يسلم القارئ من وهجها واستفزازها.

ISBN 978-9948-13-498-5

